الغزو الثقافي للعالم الإسلامي ٢

الأخطار التي تهدد ثقافتنا

العلامة الشيخ محمد مهدي الآصفي

إعداد وتحقيق: د. الشيخ حسين اليوسف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اسم الكتاب: الأخطار التي تهدد ثقافتنا
تأليف: آية الله العلامة الشيخ محمد مهدي الآصفي
إعداد وتحقيق وتصحيح: الدكتور الشيخ حسين اليوسف
الطبعة: الأولى، ٢٠٢٥م
نشر: مؤسسة حفظ ونشر تراث العلامة الآصفي
البريد الإلكتروني: m.m.alasefi@gmail.com

الفهرس

كلمة المؤسسة ٧

الأزمة الثقافية

الأزمة الثقافية أخطر من الأمّيّة ١١
الولادة غير الطبيعية للثقافة المعاصرة ١١
الآثار السلبية للثقافة المعاصرة على المثقفين ١٢
المصدر الذي نستقي منه ثقافتنا ١٤
الثقافة هي الأساس ١٦
الفِتَن الثقافية أدوات تخريب وإفساد ١٧
الأزمة الثقافية أخطر الأزمات في العصر الحديث ١٩

الثقافة والعلم

مفهوم الثقافة والعلم ٢١
الفرق بين المعرفة والعلم ٢١
العلاقة بين الثقافة والعلم ٢٣
دور الثقافة في حياة الأمة ٢٤
التخريب الثقافي ٢٥
القرآن كتاب معرفة وثقافة ٢٧
نماذج من الثقافات القرآنية ٣١

الغزو الثقافي وآلياته

العنف الثقافي ٤١
آليات العنف الثقافي ٤٢
الاجتياح الثقافي والاجتياح العسكري وجهان لعملة واحدة ٤٤

الأخطار التي تهدد ثقافتنا

مأساة القرن العشرين ٤٥
توظيف الآليات الحديثة في هذه المعركة ٤٦
أين كانت ساحة الصراع؟ ٤٧
(الاستشراق) و(التغريب) ٤٨
الفاصل الحضاري بين الحضارتين ٤٩
سقوط المناعة ٤٩
علاج التعويم الحضاري ٤٩
لا منافاة بين الثقافة والعلم ٥٠
التعددية الدينية ٥٢
التعددية والشك ٥٤
القضايا النسبية والقضايا المطلقة ٥٦
١. القضايا النسبية ٥٦
٢. القضايا المطلقة ٥٧
الإسلام هو الصراط المستقيم ٥٨

الملحقات

الملحق (١): الغزو الفرنسي لمصر وآثاره السلبية ٦٣
الملحق (٢): العنصر النسائي المتحلّل؛ القدوة البديلة ٦٤
الملحق (٣): البروتستانتية (المنشأ والعوامل) ٦٦
عوامل ظهور البروتستانتية ٦٦
منشأ البروتستانتية ٦٧
انتشار الكنائس البروتستانتية ٦٨
انتقال الفكر البروتستانتي إلى العالم العربي والإسلامي ٦٩
الملحق (٤): السوفسطائيون والسفسطة ٧٠

فهرس المصادر

كلمة المؤسسة

بين يدي القارئ العزيز سلسلة من حلقات أطلقنا عليها اسم (سلسلة الغزو الثقافي للعالم الإسلامي) جمعنا فيها ما وجدناه في تراث العلّامة الشيخ الآصفي رحمه الله حول هذا الموضوع.

إنّ من أهم الأخطار التي يواجهها العالم الإسلامي اليوم هو الغزو الثقافي أو ما يسمى اليوم بـ (الحرب الناعمة) إن لم نقل هو أخطرها على الإطلاق، فالغزو والاحتلال العسكري واضح وبيّن للجميع؛ لذلك تتم مواجهته بالأدوات والوسائل اللازمة والمباشرة حين توفّرها وحين توفّر ثقافة الجهاد ومواجهة الاحتلال، وبكل الأحوال فإن هذا النوع من الغزو جليّ وواضح بحيث يمكن الإشارة المادية والحسية إليه، وبالتالي إدانته ورفضه من قبل بعض الجهات المتضررة منه على أقل تقدير، بينما عندما يدخل الغزو والتخريب الثقافي إلى بلادنا، فإنه يدخل بطريقة لا مواجهة ولا خشونة فيها وسَلِسَة وناعمة وبعناوين برّاقة وبأدوات ووسائل متطورة، فإذا لم يكن الإنسان المسلم واعيًا ومتنبّهًا لطرق وأخطار هذا الغزو، وكانت ثقافته الإسلامية ضعيفة وضحلة، فسوف يقع في شِراك هذه المصيدة، كما حصل ووقع فيها الكثير من شبابنا إلى اليوم.

لقد اخترقت الثقافة الغربية والمعادية للإسلام بل للإنسانية جمعاء البيت المسلم ودخلت إلى عمقه؛ حتى إلى مضجعه ومخدعه الذي يعتبر أحد أهم خصوصيات الإنسان التي لا يجوز لأحد أن يطّلع عليها أو يخترقها في كل الأعراف والشرائع، فكشفته وعرّته من مبادئه وقيَمه وإنسانيته، واتجه نحو الحيوانية التي

أرادها له الغرب. وعندما يفقد المسلم مبادئه وقيمه وإنسانيته، يصبح لقمة سائغة يسهل افتراسها والسيطرة عليها؛ لذلك نجد اليوم أنّ الغرب وعلى رأسه الشيطان الأكبر أمريكا، لم يعد بحاجة إلى الغزو العسكري للسيطرة على ثروات المسلمين طالما سيطر على عقولهم ونُخبهم.

والشيخ الآصفي ﷺ لم يكن بعيدًا وغافلًا عن مثل هذه المخاطر التي عاصر بداياتها، فأخذ على عاتقه، ومن باب تحمّل الوظيفة الشرعية المتمثلة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التصدي لبيان مخاطر الغزو الثقافي وأدواته وطرق مواجهته.

ونحن بدورنا وإكمالًا لهذه المهمة التي قام بها الشيخ ﷺ، وسعيًا منّا في نشر تراث هذا العَلَم الكبير، قمنا بما يلي:

١. تجميع كل ما توفر لدينا من آثار الشيخ ﷺ المتعلقة بهذا الموضوع؛ سواء المقروءة منها أو المسموعة أو المرئية، وتأليف المباحث وضمها إلى بعضها وترتيبها وحذف المكرر منها بحيث تشكّل لدينا سلسلة حلقات لتخرج بهذا الثوب وهذه الحلّة التي بين أيديكم.

٢. إعادة تبويب وترتيب وصياغة بعض العناوين والمباحث.

٣. تحقيق وتخريج المصادر وتصحيحها وتدقيقها.

٤. تصحيح المتن وتدقيقه نحويًا ولغويًا وطباعيًا.

٥. التعليق على بعض العناوين والمباحث والاصطلاحات وشرحها وتوضيحها حيث يجب ذلك مع التعريف بالمصادر المختصة بالموضوع.

٦. هناك بعض العناوين والمباحث تم توضيحها تحت عنوان مستقل في قسم الملحقات لاحتياجها إلى توسّع لا يتّسع له هامش المتن

الأصلي؛ لذا فإنّ كل العناوين والأبحاث التي تم طرحها وبحثها في قسم الملحقات من كل حلقة هي من المحقق وليست للمؤلف.

٧. إعداد فهرس خاص بالمراجع والمصادر لكل حلقة من السلسلة مع بيان هوية المصدر بشكل كامل ومفصّل ليسهل على القارئ الرجوع إلى المصادر ذات الصلة والتوسّع في المطالعة والبحث.

فكانت هذه السلسلة التي نرجو أن تنال إعجابكم، وتحقق الأهداف المرجوّة منها، طالبين بذلك رضا الله ورسوله صلى الله عليه وآله وعترته عليهم السلام.

ونضع هنا بين أيديكم الحلقة الثانية من هذه السلسلة.

مؤسسة حفظ ونشر تراث الشيخ الآصفي رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا﴾.

[الإسراء/٩]

الأزمة الثقافية

الأزمة الثقافية أخطر من الأمّيّة

لم تعد (الأمّيّة) هي المشكلة الوحيدة التي يجب أن نبحث لها عن حل، وإنما الثقافة أيضًا تتحوّل إلى أزمة ومشكلة إذا لم نسلك إليها المسالك الصحيحة الراشدة، وأزمة الثقافة أشدّ خطرًا من مشكلة الأمّيّة؛ لأنّ الأمية ضعف وعجز... بينما الثقافة سلاح وقوة، فإذا أُسيء استخدامها كانت أخطر من مشكلة الأمّيّة.

كما أن أزمة الثروة لا تقل خطرًا عن مشكلة الفقر، فإن الفقر يؤدي إلى الجريمة والجوع والفساد وسوء التوزيع وتفكيك الأمة إلى طبقات اجتماعية واقتصادية، وإلى ظهور حالة الاستكبار والاستضعاف في المجتمع.

وكذلك الاستبداد والحريّة...

والتحوّل من الفقر إلى الغنى، ومن الأمية إلى الثقافة، ومن الاستبداد إلى الحرية، لا يعتبر تحوّلًا جوهريًا من الفساد إلى الصلاح ومن الضعف إلى القوة ما لم يقترن بمنهج صحيح في توظيف الثروة والثقافة والحرية.

الولادة غير الطبيعية للثقافة المعاصرة

وبعض أسباب الأزمة الثقافية عندنا؛ أنّ ولادة الثقافة المعاصرة في كثير من أوساطنا الثقافية كانت ولادة غير طبيعية، فهي لم تنشأ وتترعرع في بلادنا وأوساطنا، ولا تمتد جذورها إلى تاريخنا الحضاري والثقافي، وإنما أقحمت على

أجوائنا إقحامًا.

نشأت ونبتت وترعرعت في بيئات ثقافية أخرى غير بيئاتنا، ثم نقلت إلى بيئتنا الثقافية، من دون ملاحظة الحاجة والمصلحة والانسجام.

هل هي تنسجم مع تاريخنا وتراثنا؟ وهل نحن بحاجة إليها، وتصلح لنا؟

ولربما تكون لهذه الثقافات مبرّرات معقولة في مواطنها بغض النظر عن استقامتها وانحرافها... ولكن انتقالها إلى أوساطنا الثقافية حصل من دون أيّ مبررات معقولة.

وأدّى ذلك إلى حالة من التناقض الواضح في مثقفينا بين أصولهم الثقافية التي آمنوا بها، وتشبّعوا بها، وورثوها جيلًا عن جيل عن أسلافهم، وبين الثقافات الغربيّة التي تلقوها في المدرسة والجامعة ومن الصحافة والإذاعة والتلفاز والكتاب والمجلة والسينما.

الآثار السلبية للثقافة المعاصرة على المثقفين

وكان لهذه الحالة الثقافية آثار سلبية كبيرة في حياة طبقة المثقفين؛ منها:

١. ظهور حالة التخالف بين الدين والسياسة، وكان لهذه الحالة من التخالف والتقاطع بين الدين والسياسة آثار سلبية سيئة للغاية في حياتنا الثقافية... ولو أن الثقافة الرائجة في هذه الأوساط كانت منبثقة من تاريخنا، وتراثنا، وحضارتنا، وحاجاتنا، ومنسجمة معها، وفي نفس الوقت منفتحة على الأوساط الثقافية في العالم، لم يكن لتصل هذه الطبقة من مثقفينا إلى حالة التخالف والتقاطع بين الثقافة والدين، وإن كانت لهذه الحالة من التخالف والتقاطع مبرراتها في أجواء الكنيسة الكاثوليكية المنغلقة على الثقافات الأخرى؛ بل على العلم

أيضًا... إن كان لهذا التخالف مبرراته في الغرب، فلا مبرر له إطلاقًا في ثقافتنا الإسلامية القائمة على التعارف والانفتاح والحوار واتّباع الأفضل.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[1].

وقال أيضًا: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾[2].

٢. عزلة هؤلاء المثقفين عن الجمهور؛ فلم تكن هذه الثقافة قادرة على اجتذاب الجمهور من هذه الأمـة، ولم تكن قادرة على أن تعايش الناس في الشارع والسوق والبيوت والمساجد، واستقرت هذه الحالة من البينونة بين جمهورنا وفئات المثقفين بالثقافة الغربية، وأدى ذلك بالضرورة إلى أن يتحول هؤلاء المثقفون؛ كتّابًا، وأدباء، وشعراء، وعلماء، إلى أن يعيشوا في الأبراج العالية المستعلية على الجمهور بدل أن يتعايشوا مع الناس في المساجد والشوارع والأحياء والبيوت.

ورغم أنّ الأنظمة كانت تطارد ثقافة المساجد وتعزلها عن الأجواء الأكاديمية والإذاعة والصحافة، وكانت ثقافة محظورة في بعض البلاد الإسلامية، وتدعم الثقافة الغربية المستوردة... نجد أنّ الجمهور منّا كان ينشدّ إلى ثقافة المحراب والمنبر في المساجد أكثر من تعلّقه بهذه الثقافات الغربية علينا، الصادرة إلينا من الغرب والشرق. وسبب ذلك واضح؛ فإنّ هذه الثقافة أُقحمت على أوساطنا وتاريخنا وحضارتنا وأعرافنا إقحامًا، فكان من الطبيعي أن ينكمش عنها الجمهور، ولا يتلقّونها بالقبول.

٣. تحوّلت الثقافة عند المثقفين من (حاجة) إلى حالة من (التَّرَف الفكري)، وفقدت خصائصها الأساسية.

---

١. الزمر: ١٨.

٢. الحجرات: ١٣.

إنّ الثقافة عندما تكون نابعة من أصول الأمة وجذورها وتاريخها، ومتطابقة مع حاجاتها، وموجّهة لسلوكها وأفكارها ومواقفها، تتحول إلى حاجة لا يستغني عنها الجمهور، ويكون حكمها حكم العلم؛ بل يشعر الجمهور أنّ حاجته إلى (الثقافة) أكثر من (العلم)، فإن من الممكن أن يَدَعَ العلم لأصحاب الاختصاص، ويأخذه منهم، ولكن لابد من الثقافة، التي توجّه فكره، وسلوكه، ومنطقه، وموقفه، وينظّم على أساسها علاقته بالله تعالى، وعلاقته بنفسه، وعلاقته بأسرته، وعلاقاته بالمجتمع، وبالأشياء، والأفكار.

عندئذٍ تكون الثقافة حاجة، ولا تكون ترفًا فكريًا، كما آلَ إليه اليوم أمر الثقافات الغريبة المستوردة إلى بيئاتنا الثقافية عبر المحيطات.

٤. فقدان حالة الإبداع والتنظير عند مثقفينا ، واستقرارهم على النقل والتقليد والترجمة، وأصبحنا نردد - في حقول علمية وثقافية من أمثال (علم الاجتماع) و(علم النفس) و(علم الحضارة) و(علم النفس الاجتماعي) وأمثال ذلك - نظريات وأفكارًا، ننقلها ونترجمها، ولا يسعنا أن نضاهيها أو ننقدها ونقوّمها ونضيف إليها.

وسبب ذلك واضح؛ فإن مثقفينا يُعدّون أنفسهم تلاميذ تجاه هذه الأفكار والثقافات، وخيرهم من يتخرج منها ويفهمها فهمًا صحيحًا، وبينهم وبين النقد والتقويم مسافة شاسعة.

المصدر الذي نستقي منه ثقافتنا

إنّ هذه الثقافات الغريبة التي تحدثنا عنها، والتي دخلت أوساطنا الإسلامية، ليست بثقافتنا، ولا هي نابعة من أصولنا وحضارتنا وتاريخنا، وليست متطابقة مع حاجاتنا ومصالحنا، ولا تؤمّن لنا ما نطلبه من العزة والكرامة والتكامل والتحرّر من سلطان الأهواء والشهوات والطاغوت، ولا تملك القدرة على توجيه عقولنا

وسلوكنا باتجاه التكامل والعروج إلى الله، وليست قادرة على أن تروي عقولنا وقلوبنا، وتمنحنا البصيرة.

والسبب في ذلك واضح؛ فإنها من صناعة الإنسان، وأخطر شيء في حياة الناس أن يتولى الإنسان صناعة الثقافة.

إنّ من حق الإنسان أن يصنع العلم، والعلم صناعة إنسانية بإلهام من الله، ولكنّ الثقافة في حياة الناس تبقى خالصة لله تعالى، وليس للإنسان أن يعطي أصولًا وقواعد للتوجيه والإرشاد العقلي والسلوكي للناس وينظم علاقاتهم بالله، وبأنفسهم، وبالناس، إلاّ من خلال المناهج الثقافية التي أنزلها الله تعالى على أنبيائه عليهم السلام.

وليس لدينا هنا المجال الكافي لأشرح لماذا يجوز للإنسان أن يتولى صناعة العلوم ولا يجوز له أن يتولى صناعة الثقافات؟

ولماذا يجوز لنا أن نأخذ العلوم من أناس من لحمنا ودمنا، ولا يجوز لنا أن نأخذ ثقافتنا إلاّ من عند الله تعالى من خلال الوحي؟

وقد فصّلت الحديث في ذلك في كتاب (المدخل إلى التشريع الإسلامي).

ولكن قبل أن أغادر هذه النقطة أقول: إنّ مصيبة الإنسان في تاريخه دائمًا في ثقافته، وليس في العلم.

ولم يكن العلم في يوم من الأيام مصدر خطر في حياة الناس إلاّ أن يكون الخطر حاصلًا من الثقافة التي توجّه العلم وتوظّفه.

فلابدّ أن نستقي الثقافة دائمًا من مصدر الوحي في كل العصور، منذ عصر نوح عليه السلام حيث فقد الإنسان سلامة هداية الفطرة إلى يومنا هذا الذي نحن فيه.

فليس علينا بأس أن نأخذ العلم من الآخرين، حتى من أعدائنا؛ لأن العلم قوة وسلاح، فإذا تعلمنا ملكنا أسباب القوة التي يملكها أعداؤنا. وأما الثقافة، فلا يحق لنا أن نأخذها إلاّ من مصدر الوحي.

الثقافة هي الأساس

قد جعل الله تعالى هذه الأمة أمة وسطًا، على خطّ الاعتدال في كل شيء، بعيدًا عن التطرف والمغالاة، وجعلها أمة شاهدة وقيّمة على سائر الأمم، ورزقها هذه القيمومة والشهادة من خلال هذا الموقع الوسط.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[1].

وجعل الله هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله، وجعل الإيمان بالله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حسيبًا لهذا الموقع المتميز بين الأمم والشعوب.

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[2].

وجعل الله هذه الأمة أمة رفيعة عالية مستعلية على غيرها من الأمم، في شتى الظروف؛ في السراء والضراء، وجعل الإيمان بالله مصدرًا لهذا العلو والاستعلاء والموقع الرفيع بين سائر الناس على وجه الأرض.

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[3].

---

١. البقرة: ١٤٣.

٢. آل عمران: ١١٠.

٣. آل عمران: ١٣٩.

وسرّ ذلك كله في ثقافتها، فإذا احتفظت بثقافتها، وتمسكت بها، واهتدت بها، وحكّمتها على عقلها وسلوكها ومنطقها ومواقفها وعلاقاتها، كانت ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، وكانت ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾، وكانت الأعلى، والأرفع، والأقوى، والأغنى على وجه الأرض.

وإذا فقدت ثقافتها وأضاعتها، فقدت هذه المواقع جميعًا، ولقيت الغيّ والضياع:

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[1].

إنّ سرّ كل الانتكاسات والهزائم التي لقيناها في تاريخنا الطويل هو في تخلينا وانحرافنا عن ثقافتنا التي جاء بها رسول الله ﷺ إلينا من عند الله عن طريق الوحي.

إنّ مصيبتنا في ابتعادنا عن ثقافتنا وتخلّينا وانحرافنا عنها، وهي أساس كل مصائبنا السياسية والاقتصادية والعسكرية والعلمية.

وإذا أردنا أن نَعرفَ الأسباب الحقيقية لكلّ حالات التخلّف، والضعف، والتبعية، والانتكاسات، والهزائم، والفقر، والبؤس، والتقاطعات فيما بيننا... يجب أن نبحث أسباب هذه الحالات جميعًا في أزماتنا الثقافية، وعجزنا الثقافي، وفي الفتن، والأخطار التي تهدد ثقافتنا اليوم.

الفِتَن الثقافية أدوات تخريب وإفساد

عندما يسقط الناس في الفِتَن، تتحول الفتن إلى أدوات فعالة في التخريب والإفساد، وقليل من الناس من يسلم من الفتن وآثارها التخريبية القاتلة.

وشرّ أنواع الفتن؛ الفتن الثقافية، فهي تحمل آثارًا تخريبية واسعة في

١. مريم: ٥٩.

المجتمع، عندما يسقط الناس فيها.

فالفقر فتنة، والغنى فتنة، والمرض فتنة، والصحة فتنة، والأولاد والأزواج والأصدقاء فتنة، والأعداء فتنة، والمال فتنة، والنساء فتنة، والذهب والفضة فتنة، والظلم فتنة، والعدل فتنة، وهكذا الفتن كثيرة...

إذًا؛ من الفتن فتن خير؛ كالمال، والصحة، والأولاد، والأزواج، والسلطان، والملك، والقوة.

ومن الفتن فتن شرّ؛ كالفقر، والعُقم، والمرض، والاستضعاف.

وكل هذه الفتن لابتلاء الإنسان: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[1].

والغاية من هذه الفتن، في الشر والخير، هو ابتلاء الإنسان؛ يصبر أم يجزع؟ ينفق أم يمسك؟ يُحسن أم يسيء؟

فإذا سقط الإنسان في الفتنة، فإنها تتحوّل عندئذ في حياته إلى أداة تخريبية قوية وقاتلة.

ومن هذه الفتن؛ الفتن الثقافية، وهي شرّ أنواع هذه الفتن إذا سقط فيها الإنسان.

ومن ذلك؛ البدع في الدين، ومضلّات الفتن.

ومنها الفتن الطائفية؛ فإنها لا تبقي ولا تذر.

ومنها دعاوي المهدويّة، والسفارة المهدوية.

ومنها فتنة الغلو، وفتنة النصب، وفتنة تكفير المسلمين والاستهانة بدمائهم.

ومنها فتنة الخوارج، وفتنة المسالك الباطلة من التصوف.

---

١. الأنبياء: ٣٥.

ومنها فتنة التلفيق والتهجين الثقافي، وفتنة الإفراط والتفريط في العقائد والدين، والخروج عن منهج الاعتدال.

ومنها فتنة الحداثة التي تغري ضعفاء الناس كثيرًا، فينحرفون تحت هذا العنوان إلى كثير من الزيغ والضلال والباطل.

ولقد أدّى بعض هذه الفتن إلى إراقة دماء كثيرة وإزهاق النفوس والقتال ما بين المسلمين مثل فتنة الخوارج، وهي فتنة ثقافية في الأساس. ومثل فتنة خلق القرآن التي شغلت المسلمين زمنًا طويلًا، وتسبّبت في إراقة كثير من الدماء وانتهاك الحرمات.

وعلى هذا المنوال تسبّبت الفتن الثقافية، وبعدها الفتن السياسية بكثير من الأخطار التي تهدد ثقافتنا وأمننا الفكري والثقافي، وعقائدنا، ونقاوة تصوراتنا للإسلام.

الأزمة الثقافية أخطر الأزمات في العصر الحديث

نحن اليوم نعيش أخطر الأزمات الثقافية في تاريخنا، وهذه الأزمات تحمل إلينا تهديدات قوية جدّية لثقافتنا وحضارتنا وأجيالنا الصاعدة وكياننا السياسي والاقتصادي.

وذلك أن الصراع الحضاري اليوم، بيننا وبين الغرب، دخل في حالة المواجهة المحتدمة الضارية على كل المستويات.

وقد عرف الغربيون أنّ عمليات التخريب الثقافي وخلق الأزمات الثقافية هي الآليات المفضلة للنفوذ السياسي والاقتصادي والعسكري في العالم الإسلامي، وقد توارثوا هذه الخبرة جيلًا بعد جيل، منذ دخول نابليون إلى شمال أفريقيا إلى اليوم، فهم يعرفون مواضع النفوذ وبسط السلطة والسياسة على بلادنا.

ويمتلكون اليوم من الآليات القوية الفعالة لنشر الثقافة الدخيلة واختلاق الأزمات الثقافية والطائفية؛ من الفضائيات، والصحف عابرات القارات، وشبكات الإنترنت، والأفلام، والمؤسسات الثقافية والإنسانية، ما لم يملكه ولم يعرفه أسلافهم من الفرنسيين والإنجليز.

فأصبح بإمكانهم أن ينفذوا إلى مخادع نوم أبنائنا في عقر دورنا، وهذا خطر حقيقي يهدّد الجيل الصاعد إن لم نتداركه بإذن الله.

ولذلك فإن أبحاثًا ودراسات علمية عن أزماتنا الثقافية المعاصرة من هذا القبيل تنفعنا.

وهذه دراسة موجزة، أتحدث فيها - إن شاء الله - عن الأزمات، والأخطار، والفتن الثقافية التي تهدد ثقافتنا، وبالتبع تهدد كياننا الحضاري والسياسي والاقتصادي والأمني.

الثقافة والعلم

مفهوم الثقافة والعلم

الثقافة كلمة حديثة دخلت أدبياتنا الإسلامية، وشاع استعمالها.

وهي قريبة جدًا أو متطابقة مع كلمة (المعرفة) في أدبياتنا الإسلامية تاريخيًا قبل أن يشيع استعمال هذه الكلمة.

فقد شاع في أدبياتنا الإسلامية قبل هذا العصر استعمال كلمتي (المعرفة والعلم) بمعنيين مختلفين.

وكانوا يقصدون بالمعرفة الأفكار التي توجّه فكر الإنسان وسلوكه وحركته، ويقصدون بالعلم القضايا الثابتة في التكوين والاعتبار والانتزاع.

فيدخل في دائرة المعرفة التوحيد، ومعرفة الله، والإيمان بالله، والفقه، والأخلاق، والعقائد.

ويدخل في دائرة العلم الطب، والصيدلة، والهيئة، والنجوم، وطبقات الأرض، والرياضيات، والهندسة، والكهرباء، وعلم النفس، والاجتماع، والعلوم الأدبية: (اللغة، والنحو، والصرف، والعَروض. .).

الفرق بين المعرفة والعلم

وبتعبير أوضح: المعرفة ذات مردود مباشر على سلوك الإنسان بعكس العلم... وهذا هو الفارق الأساس بين العلم والمعرفة. فتنعكس معرفة الله

على سلوك الإنسان الجانحي (النفس)، والجارحي (العضوي) مباشرة، فيُمنح الإنسان الخشية والتقوى من عند الله.

وقد يتحول العلم في الأوعية النفسية الصالحة إلى معرفة وثقافة، فيعرف الإنسان الله من خلال الطب والجراحة والنجوم والحيوان والنبات... كما يتفق كثيرًا للعلماء أن يعرفوا الله تعالى من خلال العلم، إلا أنّ انقلاب العلم إلى المعرفة يتم من خلال قنوات المعرفة والتفكير والرؤية العميقة الثاقبة، وتجنب حالة التسطيح في الفهم، واستخدام التأمل والعبرة والاعتبار.

يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[1].

للعلماء قراءتان في النجوم:

القراءة الأولى: القراءة السطحية، ويتركز فيها النظر على الأبعاد والأحجام والقوانين والسنن. وهذه هي القراءة العلمية، ولابد منها، ومن غيرها لا يتم (العلم).

القراءة الثانية: القراءة المعمّقة المتأملة في دلالات هذا العلم؛ مَن الذي خلق هذه النجوم بهذا الإحكام المدهش، بهذه الأحجام والفواصل الهائلة؟ ولماذا؟ وهل يمكن أن يكون هذا النظام الكوني الهائل والمدهش والعظيم قد خُلق بصورة عفوية وباطلة؟ فينتهي إلى هذه الحقيقة التي لابد أن ينتهي الإنسان إليها: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾.

إذًا؛ هناك قراءتان؛ قراءة علمية، وقراءة معرفية، ولابد منهما معًا، وهناك حقلان؛ حقل العلم، وحقل المعرفة، وهما متمايزان، وقد ينقلب العلم إلى

١. آل عمران: ١٩١.

معرفة، وقد تنقلب المعرفة إلى علم، وعندما يختزن الإنسان هذه المعرفة في الذاكرة، للعلم وليس للعمل، فيكون مثله ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾[1].

ولا أعرف دراسة علمية للتمييز بين حقل العلم والمعرفة (الثقافة)، ولا أحب أن أقطع تسلسل هذا البحث على القارئ، وأدخله في جوّ التنظير للتفريق بين العلم والمعرفة[2].

ويكفينا الآن هذا المقدار من التوضيح في التفريق بين هاتين الكلمتين.

وأهم حقول المعرفة (العقائد، والفقه، والأخلاق) .

العلاقة بين الثقافة والعلم

رغم اختلاف مفهومي الثقافة والعلم، فإن هناك علاقة وثيقة بين الثقافة والعلم.

للثقافة دور كبير في تقويم العلم والعلماء وتوجيههم.

كما أن للعلم دورًا في دعم الثقافة... العلم قوة تدعم الثقافة... والثقافة نور

---

١. الجمعة: ٥.

٢. إنّ البحث في مفهومَي العلم والمعرفة وعلاقة كلٍّ منهما بالآخر والفرق بينهما ربما يكون من أصعب وأعقد المباحث النظرية وأكثرها إبهاما؛ حيث لم يكن هناك اتفاق بين المنظّرين والباحثين في بيان مفهوم واحد لكل منهما، وعليه أيضا لن يكون هناك اتفاق على علاقتهما ببعض والفرق بينهما؛ على الرغم من أنه سُطّرت العديد من المصنفات والبحوث في بيان ذلك. ويعود سبب هذا الاختلاف إلى اختلاف جهة النظر إلى كلٍّ منهما، وعدم الموضوعية والتجرد من الخلفيات الثقافية الموجودة لدى الباحث؛ لذا فإنّ الباحث يقوم بتحميل ما لديه من خلفيات ذهنية على هذين الاصطلاحين.
وبكل الأحوال؛ بمراجعة بيان سماحة الشيخ ﷾ يتضح مراده لاسيما بملاحظة أمرين: الأول؛ الأمثلة التي ذكرها لبيان كل من الاصطلاحين، والثاني؛ أنه فسّر الثقافة بالمعرفة وجعلها رديفًا لها، ومعنى الثقافة أمر واضح عرفًا. (من المحقق)

وهداية.

ومن دون الثقافة الراشدة يطغى العلم وينحرف، ونماذج ذلك في تاريخ البشرية كثيرة، ومن ذلك الاستخدامات المعاصرة الحديثة لانشطار الذرة وتخصيب عنصر اليورانيوم في السلاح الذري الفاتك في اليابان من قبل الأمريكان.

وبناءً على ذلك؛ فإن الثقافة والعلم يتكاملان؛ الأول يوجّه الثاني، والثاني يدعم الأول ويسانده.

دور الثقافة في حياة الأمة

قيمة كل أمة بثقافتها، وكما تكون ثقافة الأمة هدى وكمالًا واستحكامًا وخُلقًا، تكون كذلك تلك الأمة بنفس النسبة قوية ومتقدمة ومتطورة.

والثقافة في كل أمّة بحكم الحجر الأساس والقاعدة التي تقوم عليها تلك الأمة؛ فإذا كانت ثقافتها هزيلة ضعيفة، كانت بنية تلك الأمّة هشّة وضعيفة ومنخورة، وإذا كانت ثقافتها قوية وراشدة ومتكاملة، كانت تلك الأمة قوية ومتكاملة ومتطورة ومتماسكة.

ولذلك؛ فإنّ الأخطار التي تهدد ثقافة هذه الأمة المباركة، تهدد في الحقيقة تطورها العلمي، وكفاءاتها الاقتصادية، وتماسكها الاجتماعي، وقدراتها العسكرية.

وذلك بسبب العلاقة الوثيقة بين ثقافة الأمة وتركيبها الاقتصادي والعلمي والاجتماعي والعسكري.

إنّ التبعية السياسية والاقتصادية والتخلّف العلمي والإداري والاقتصادي والسياسي مناشئها وأسبابها البعيدة، هي الثقافة؛ لا محالة.

إنّ الأمة التي تأخذ بثقافة ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[1]، تتجاوز لا محالة حالة التخلف العلمي.

والأمة التي تأخذ بثقافة ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾[2]، تتجاوز لا محالة حالات الاستبداد السياسي والقمعي في الأنظمة الحاكمة الظالمة.

والأمة التي تتمسك بثقافة تحريم نفوذ الكافر على المسلمين في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[3]، تتجاوز لا محالة حالات الاحتلال والغزو العسكري والنفوذ الاقتصادي والسياسي والعسكري لأنظمة الاستكبار العالمي.

والأمة التي تتمسك بثقافة الحوار والانفتاح في قوله تعالى ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[4]، و﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[5]، و﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾[6]، هذه الأمة تتجاوز حالات الانغلاق والانكفاء على الذات، وتدخل في ساحة التعامل والتفاعل الحضاري والسياسي والاقتصادي.

وهكذا: الثقافة الراشدة هي أساس النمو السوي والتكامل العلمي والاقتصادي والسياسي في كل أمة.

التخريب الثقافي

وبسبب هذا الدور القوي المؤثر للثقافة في حياة الأمة... نجد أنّ أعداء

---

١. طه: ١١٤.

٢. هود: ١١٣.

٣. النساء: ١٤١.

٤. النحل: ١٢٥.

٥. الزمر: ١٨.

٦. الحجرات: ١٣.

الإسلام، وأنظمة الاستكبار العالمي، عندما يخطّطون لاحتلال العالم الإسلامي، وسرقة ثرواته الطبيعية، وفرض نفوذهم السياسي والاقتصادي على المسلمين، يبدأون بعمليات تخريبية واسعة في ثقافة المسلمين، واستبدالها بالثقافة المادية في الغرب.

لا لأن الغربيين رُسُل ثقافة، فإن مهمة القيادات الغربية تنتهي عند آبار النفط ومصادر الثروة الطبيعية... ولكن لأن الغربيين يعلمون جيدًا أنّ الثقافة الإسلامية هي العقبة الأولى التي تحول بينهم وبين فرض نفوذهم وسلطانهم على العالم الإسلامي، ولن يتم لهم التقدم في أقاليم العالم الإسلامي إلا بعد تخريب ثقافي واسع في بلاد المسلمين.

وقد كان نابليون بونابرت أول من فكّر وخطط لغزو العالم الإسلامي، وقد تقدّم نابليون عسكريًا، واحتل أرض النيل، ولكنه واجه مقاومة غير عادية من قبل المصريين، لم يكن يحسب لها بونابرت حسابًا من قبل.

ولذلك؛ بدأ نابليون بالتخطيط للتخريب الثقافي في مصر، ومن ثم في شمال قارة أفريقيا، وورث الإنجليز والبرتغاليون والإيطاليون من الفرنسيين ميراث التخريب الثقافي في العالم الإسلامي.

وهكذا؛ توارثت أنظمة الاستكبار العالمي الغربية، ميراث التخريب الثقافي جيلًا بعد جيل.

ويرث الأمريكان اليوم هذا الميراث من الإنجليز.

والفضل يعود في هذا التوارث إلى بونابرت، الذي سبقهم جميعًا لغزو العالم الإسلامي.

وقد سمعنا أنّ بونابرت لما واجه صمود الشارع المصري الديني مقابل الغزو

العسكري الفرنسي، طلب أن يحضروا له من يترجم له شيئًا من القرآن... ففتح المترجم القرآن، فوقع نظره على الآية (٩) من سورة الإسراء: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[١]، فترجمها لبونابرت، فتغير وجهه، وعرف أنه سوف يخرج مهزومًا من هذه المعركة[٢]، ومن ذلك اليوم بدأ نابليون يخطط لعملية واسعة للتخريب الثقافي في مصر، وفي شمال أفريقيا، والتي امتدت بعد ذلك إلى كل العالم الإسلامي تقريبًا. ويطول بنا المقام لو أردنا أن نتحدث عن الغارة الثقافية التي مارسها القادة الغربيون في الشرق الإسلامي.

القرآن كتاب معرفة وثقافة

القرآن كتاب معرفة وثقافة وهداية للبشرية، أنزله الله تعالى على رسوله ﷺ؛ ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور:

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[٣].

وهذا الكتاب يهدي الناس إلى الصراط المستقيم الذي لا عوج ولا انحراف فيه:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۝١ قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٤].

﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[٥].

---

١. الإسراء: ٩.

٢. لم نعثر على مصدره. راجع الملحق رقم (١): الغزو الفرنسي لمصر وآثاره السلبية

٣. إبراهيم: ١.

٤. الكهف: ١ - ٢.

٥. الزمر: ٢٨.

وهو بيان ونور وهداية وذكر للإنسان:

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[1].

﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2].

﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[3].

وهو شفاء لأمراض الناس النفسية والروحية والحضارية والثقافية:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[4].

هذا هو القرآن؛ نور وهداية في حياة الناس، أنزله الله تعالى على رسوله ﷺ؛ ليكون لهم منهاجًا ونظامًا لدنياهم وآخرتهم.

وعن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ النُّورُ الْمُبِينُ وَالْحَبْلُ الْمَتِينُ وَالْعُرْوَةُ الْوُثْقَى وَالدَّرَجَةُ الْعُلْيَا وَالشِّفَاءُ الْأَشْفَى وَالْفَضِيلَةُ الْكُبْرَى وَالسَّعَادَةُ الْعُظْمَى، مَنِ اسْتَضَاءَ بِهِ نَوَّرَهُ اللَّهُ، وَمَنْ عَقَدَ بِهِ أُمُورَهُ عَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ أَنْقَذَهُ اللَّهُ، وَمَنْ لَمْ يُفَارِقْ أَحْكَامَهُ رَفَعَهُ اللَّهُ، وَمَنِ اسْتَشْفَى بِهِ شَفَاهُ اللَّهُ، وَمَنْ آثَرَهُ عَلَى مَا سِوَاهُ هَدَاهُ اللَّهُ، وَمَنْ طَلَبَ الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ جَعَلَهُ شِعَارَهُ وَدِثَارَهُ أَسْعَدَهُ اللَّهُ، وَمَنْ جَعَلَهُ إِمَامَهُ الَّذِي يَقْتَدِي بِهِ وَمُعَوَّلَهُ الَّذِي يَنْتَهِي إِلَيْهِ آوَاهُ اللَّهُ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ وَالْعَيْشِ السَّلِيمِ)[5].

---

١. النحل: ٨٩.

٢. آل عمران: ١٣٨.

٣. الأعراف: ٢٠٣.

٤. الإسراء: ٨٢.

٥. محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٨٩، ص٣١، ح٣٤.

وعن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي حَدِيثٍ:

(إِذَا الْتَبَسَتْ عَلَيْكُمُ الْفِتَنُ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ فَعَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ وَمَاحِلٌ مُصَدَّقٌ، وَمَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ، وَهُوَ الدَّلِيلُ يَدُلُّ عَلَى خَيْرِ سَبِيلٍ، وَهُوَ كِتَابٌ فِيهِ تَفْصِيلٌ وَبَيَانٌ وَتَحْصِيلٌ، وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، وَلَهُ ظَهْرٌ وَبَطْنٌ؛ فَظَاهِرُهُ حُكْمٌ، وَبَاطِنُهُ عِلْمٌ، ظَاهِرُهُ أَنِيقٌ وَبَاطِنُهُ عَمِيقٌ، لَهُ نُجُومٌ، وَعَلَى نُجُومِهِ نُجُومٌ، لاَ تُحْصَى عَجَائِبُهُ، وَلاَ تُبْلَى غَرَائِبُهُ، [فِيهِ] مَصَابِيحُ الْهُدَى وَمَنَارُ الْحِكْمَةِ وَدَلِيلٌ عَلَى الْمَعْرِفَةِ لِمَنْ عَرَفَ الصِّفَةَ)[1].

وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: (ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ نُورًا لاَ تُطْفَأُ مَصَابِيحُهُ، وَسِرَاجًا لاَ يَخْبُو تَوَقُّدُهُ، وَبَحْرًا لاَ يُدْرَكُ قَعْرُهُ، وَمِنْهَاجًا لاَ يَضِلُّ نَهْجُهُ، وَشُعَاعًا لاَ يُظْلِمُ ضَوْءُهُ، وَفُرْقَانًا لاَ يَخْمَدُ بُرْهَانُهُ، وَبُنْيَانًا لاَ تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ، وَشِفَاءً لاَ تُخْشَى أَسْقَامُهُ، وَعِزًّا لاَ تُهْزَمُ أَنْصَارُهُ، وَحَقًّا لاَ تُخْذَلُ أَعْوَانُهُ.

فَهُوَ مَعْدِنُ الْإِيمَانِ وَبُحْبُوحَتُهُ، وَيَنَابِيعُ الْعِلْمِ وَبُحُورُهُ، وَرِيَاضُ الْعَدْلِ وَغُدْرَانُهُ، وَأَثَافِيُّ الْإِسْلاَمِ وَبُنْيَانُهُ، وَأَوْدِيَةُ الْحَقِّ وَغِيطَانُهُ، وَبَحْرٌ لاَ يَنْزِفُهُ الْمُسْتَنْزِفُونَ، وَعُيُونٌ لاَ يُنْضِبُهَا الْمَاتِحُونَ، وَمَنَاهِلُ لاَ يُغِيضُهَا الْوَارِدُونَ، وَمَنَازِلُ لاَ يَضِلُّ نَهْجَهَا الْمُسَافِرُونَ، وَأَعْلاَمٌ لاَ يَعْمَى عَنْهَا السَّائِرُونَ، وَآكَامٌ لاَ يَجُوزُ عَنْهَا الْقَاصِدُونَ.

جَعَلَهُ اللَّهُ رِيًّا لِعَطَشِ الْعُلَمَاءِ، وَرَبِيعًا لِقُلُوبِ الْفُقَهَاءِ، وَمَحَاجَّ لِطُرُقِ الصُّلَحَاءِ، وَدَوَاءً لَيْسَ بَعْدَهُ دَاءٌ، وَنُورًا لَيْسَ مَعَهُ ظُلْمَةٌ، وَحَبْلًا وَثِيقًا عُرْوَتُهُ، وَمَعْقِلًا مَنِيعًا ذِرْوَتُهُ، وَعِزًّا لِمَنْ تَوَلاَّهُ، وَسِلْمًا لِمَنْ دَخَلَهُ، وَهُدًى لِمَنِ ائْتَمَّ بِهِ، وَعُذْرًا لِمَنِ انْتَحَلَهُ، وَبُرْهَانًا لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ، وَشَاهِدًا لِمَنْ خَاصَمَ بِهِ، وَفَلْجًا لِمَنْ حَاجَّ بِهِ، وَحَامِلًا لِمَنْ حَمَلَهُ، وَمَطِيَّةً لِمَنْ أَعْمَلَهُ، وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ، وَجُنَّةً لِمَنِ

١. الحر العاملي، وسائل الشيعة، الباب ٣ من أبواب قراءة القرآن ولو في غير الصلاة، ج٦، ص١٧١، ح٣.

اسْتَلْأَمَ، وَعِلْمًا لِمَنْ وَعَى، وَحَدِيثًا لِمَنْ رَوَى، وَحُكْمًا لِمَنْ قَضَى)[1].

القرآن إذن كتاب هداية ومعرفة وثقافة ونور في حياة الناس.

ولا ينفي ذلك أن يكون في القرآن علم، ففي القرآن علم كثير، ولكن رسالة القرآن هي المعرفة والثقافة بالمعنى الذي تحدثنا عنه، وأما دور العلم في القرآن، فهو دور ثانوي يأتي على نحو لفتات وتنبيهات سريعة إلى آيات الله في الكون.

والقرآن معجزة في ثلاثة وجوه، لا شك في ذلك:

معجزة في البيان؛

ومعجزة في العلم؛

ومعجزة في الثقافة والمعرفة.

يتحدى الناسَ بما أودع الله فيه من الإعجاز البياني الذي أعجز الناس أن يأتوا بمثله، ويتحدى الناس بالإعجاز العلمي، ويتحدى الناس بالإعجاز المعرفي والثقافي.

القرآن في كل ذلك معجزة، ولكننا لا نشك أنّ الإعجاز المعرفي والثقافي في القرآن أعظم من الإعجاز البياني والعلمي، ولولا ذلك لم يكن القرآن المعجزةَ الخالدة للإسلام لكل العصور ولكل الشعوب.

إنّ الرسالة الأولى للقرآن هي تثقيف الناس وتوجيه عقولهم وسلوكهم وحركتهم ونطقهم ومواقفهم وعلاقتهم بالله تعالى وبالناس وبأنفسهم وبالأشياء.

---

١. نهج البلاغة، الخطبة: ١٨٩، من خطبة له عليه السلام ينبّه على إحاطة علم الله بالجزئيات...، ص٢٣٤.

إنّ هذا الكتاب اخترق الحضارات العريقة يومذاك، وتمكّن من أن يهدم ويهزم أعرق الحضارات وأقواها، في أقل من نصف قرن، في كل الميدان الحضاري للإنسان يومذاك.

والناس يرون أنّ الفتوحات العسكرية الإسلامية، التي انطلقت من الجزيرة وهزمت إمبراطوريتين عظيمتين على وجه الأرض، هي معجزة هذا الدين، وهو كذلك؛ ولكن ما هو أعظم من ذلك كله هو الهزيمة التي أوقعها القرآن في ثقافتين عريقتين للحضارتين القائمتين يومذاك في الشرق والغرب (الفارسية والرومانية).

نماذج من الثقافات القرآنية

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[1].

فيما يلي نذكر طائفة من الثقافات والبصائر القرآنية... والقرآن كله ثقافة وبصيرة، تقوّم فكر الإنسان وسلوكه وعلاقاته ومواقفه ومنطقه. وإليك طرفًا من هذه الثقافات:

١. ثقافة التوحيد: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾[2].

﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾[3].

٢. ثقافة الإيمان بالغيب: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾[4].

---

١. الإسراء: ٩.

٢. النساء: ١٧١.

٣. الأنعام: ١٩.

٤. البقرة: ٢ - ٣.

٣. ثقافة الدعوة إلى الله: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[١].

٤. ثقافة التقوى في السلوك والحركة: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[٢].

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٣].

٥. ثقافة الالتزام بحدود الله في الحلال والحرام: وهو تعبير آخر عن التقوى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾[٤].

﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[٥].

٦. ثقافة التحذير من الشيطان: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾[٦].

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[٧].

٧. ثقافة تعديل الأهواء والسيطرة عليها: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[٨].

---

١. يوسف: ١٠٨.
٢. البقرة: ٢.
٣. الأنعام: ١٥٥.
٤. البقرة: ٢٢٩.
٥. البقرة: ٢٢٩.
٦. الإسراء: ٥٣.
٧. فاطر: ٦.
٨. النازعات: ٤٠ - ٤١.

٨. ثقافة المراقبة الاجتماعية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾[١].

٩. ثقافة الطاعة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[٢].

١٠. ثقافة الدعاء: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[٣].

﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾[٤].

١١. ثقافة الشورى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾[٥].

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[٦].

١٢. ثقافة التعاون والتضامن الاجتماعي: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾[٧].

١٣. ثقافة تكريم الإنسان: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾[٨].

١٤. ثقافة الوفاء بالعقود والاتفاقيات: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾[٩].

---

١. آل عمران: ١١٠.
٢. النساء: ٥٩.
٣. البقرة: ١٨٦.
٤. الفرقان: ٧٧.
٥. الشورى: ٣٨.
٦. آل عمران: ١٥٩.
٧. المائدة: ٢.
٨. الإسراء: ٧٠.
٩. المائدة: ١.

١٥. ثقافة الأمن في العلاقات الاجتماعية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾[٢].

١٦. ثقافة الانفتاح: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾[٣].

١٧. ثقافة الأخوّة الإيمانية: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٤].

١٨. ثقافة التبيّن والتثبّت في الإخبار والإشاعات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[٥].

١٩. ثقافة رفض الطاغوت: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾[٦].

٢٠. ثقافة النهي عن الانقياد والركون إلى الظالم والحكام الظالمين: ﴿وَلَا

---

١. الحجرات: ١١.
٢. الحجرات: ١٢.
٣. الحجرات: ١٣.
٤. الحجرات: ١٠.
٥. الحجرات: ٦.
٦. النساء: ٦٠.

تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾[1].

٢١. ثقافة النهي عن تمكين الكافر وقبول نفوذه وسلطانه على المسلمين: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[2].

٢٢. ثقافة الولاء: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[3].

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[4].

٢٣. ثقافة البراءة: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾[5].

٢٤. ثقافة جهاد الكفار المعتدين: ﴿فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾[6].

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾[7].

٢٥. ثقافة استئصال الفتنة من وجه الأرض: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾[8].

---

١. هود: ١١٣.

٢. النساء: ١٤١.

٣. المائدة: ٥٥.

٤. التوبة: ٧١.

٥. التوبة: ٣.

٦. البقرة: ١٩١.

٧. البقرة: ١٩٠.

٨. الأنفال: ٣٩.

٢٦. ثقافة الذكر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾[١].

٢٧. ثقافة الشكر: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[٢].

٢٨. ثقافة المقاومة والصمود والاستقامة: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[٣].

﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾[٤].

٢٩. النهي عن الفرار من الزحف: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾[٥].

٣٠. الأمن في العلاقة بين الجنسين: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا..﴾[٦].

٣١. الحث على النكاح والزواج: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾[٧].

٣٢. ثقافة التضامن والتواصي على الحق والثبات عليه: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ

---

١. الأحزاب: ٤١.

٢. إبراهيم: ٧.

٣. آل عمران: ١٣٩.

٤. الشورى: ١٥.

٥. الأنفال: ١٥.

٦. النور: ٣٠ - ٣١.

٧. النور: ٣٢.

وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[1].

٣٣. ثقافة التحضير والإعداد للقتال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[2].

٣٤. ثقافة رفض الرهبانية: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾[3].

٣٥. ثقافة المودة والرحمة والسكون في الحياة الزوجية: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[4].

٣٦. ثقافة الشفقة والرحمة والتذلل للوالدين: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾[5].

٣٧. ثقافة الحمد والتسبيح والاستغفار: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾[6].

٣٨. ثقافة الإنفاق: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[7].

٣٩. ثقافة الاعتدال والتوازن: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[8].

---

١. العصر: ٣.
٢. الأنفال: ٦٠.
٣. الحديد: ٢٧.
٤. الروم: ٢١.
٥. الإسراء: ٢٤.
٦. النصر: ٣.
٧. آل عمران: ٩٢.
٨. البقرة: ١٤٣.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾[1].

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾[2].

٤٠. ثقافة أداء الأمانات: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾[3].

٤١. ثقافة إقامة الصلاة: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ﴾[4].

٤٢. ثقافة الحوار: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[5].

٤٣. مقياس التفاضل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[6].

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[7].

﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾[8].

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[9].

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾[10].

---

١. الفرقان: ٦٧.

٢. القصص: ٧٧.

٣. النساء: ٥٨.

٤. النور: ٣٧.

٥. النحل: ١٢٥.

٦. الحجرات: ١٣.

٧. الزمر: ٩.

٨. السجدة: ١٨.

٩. النساء: ٩٥.

١٠. فاطر: ١٩؛ وغافر: ٥٨.

٤٤. ثقافة العمل: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[١].

٤٥. ثقافة الإعمار والإحياء والحركة على وجه الأرض: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[٢].

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٣].

٤٦. ثقافة التعايش مع الآخرين: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[٤].

﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾[٥].

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾[٦].

٤٧. ثقافة الجمع بين الدنيا والآخرة: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[٧].

---

١. التوبة: ١٠٥.
٢. الملك: ١٥.
٣. الجمعة: ١٠.
٤. الممتحنة: ٨.
٥. النساء: ٩٠.
٦. الأنفال: ٦١.
٧. البقرة: ٢٠١.

﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾[1].

٤٨. الدعوة إلى التعقل والتفكير: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[2].

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[3].

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[4].

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

٤٩. وحدة الأديان والرسالات الإلهية في التاريخ: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

٥٠. ثقافة الاقتصاد والنهي عن الإسراف والتبذير: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾[5].

هذه خمسون نموذجًا من ثقافات القرآن وبصائره... والقرآن كله نور وبصائر وثقافة... وثقافات القرآن وبصائره تعمّ كل ساحات حياة الإنسان، وتتولى توجيه فكر الإنسان وسلوكه ومنطقه وهواه وعلاقاته.

---

١. القصص: ٧٧.

٢. البقرة: ٢٤٢.

٣. الحديد: ١٧.

٤. الأنعام: ٩٧.

٥. الإسراء: ٢٦ ٢٧.

الغزو الثقافي وآلياته

العنف الثقافي

نحن نواجه منذ بدايات القرن العشرين الميلادي غزوًا ثقافيًا واسعًا من ناحية الغرب.

وفي هذا الغزو الثقافي والحضاري أُقحمت علنيا أفكار ومفاهيم ورؤى وتصورات متقاطعة مع ثقافتنا وحضارتنا، يغلب عليها الطابع المادي الصارخ، وتختفي فيها الحالة الروحية، وتطغى فيها النوازع والغرائز، وتختفي فيها التقوى وضبط النفس والهوى ومخافة الله، وتظهر عليها حالات الأنا والأنانية والبعد عن الله، وتختفي عنها الحالات الربانية من الذكر والشكر والإنابة والتضرع والدعاء والمناجاة، وتبرز فيها حالات الحرّية والانـفلات من الضوابط، وتختفي فيها حالات العبودية والطاعة...

وعلى العموم؛ تظهر عليها حالات المباينة والتخالف والتقاطع مع الرؤى والتصورات والأحكام والقيم والأخلاق الإسلامية.

ولسنا هنا بصدد التفصيل في نقاط الاختلاف بين الثقافة الإسلامية والثقافة المادية الجاهلية في الغرب.

كما أنه من الخطأ الفادح والمغالطة أن نُسمّي الحالة التي طغت على مجتمعنا منذ أواخر حكم آل عثمان إلى اليوم بالانفتاح الثقافي والعلمي على الغرب... وإن كان أصحاب مشاريع الغزو الثقافي يغطّون هذه الغارة الثقافية

على مجتمعنا بعناوين من أمثال (الحداثة) و(الانفتاح) و(التعامل الثقافي).

ولكن؛ الحقيقة أننا تعرضنا في العالم الإسلامي في هذه الحقبة لاجتياح ثقافي بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، ويحمل هذا الاجتياح كل أوصاف ومقومات الغزو العسكري، وينطبق عليه بشكل دقيق عنوان (الغزو الثقافي).

فهو دخولٌ بعنف إلى منطقة الثقافة الإسلامية، من قبل ثقافة أجنبية غريبة عن تاريخ هذه الأمة وحضارتها وتراثها الثقافي.

وإلغاءٌ بعنف لكثير من أصول وقواعد وثوابت الثقافة الإسلامية، إلى حد الاستهتار والاستهزاء والتسخيف للثقافة الإسلامية.

واستبدال لها ببدائل من الثقافة المادية الجاهلية الغربية والشرقية أيضا بعنف.

آليات العنف الثقافي

وإنما نقول بعنف؛ لأن هذه الثقافة الغربية دخلت أوساطنا الثقافية بآليات قوية فعالة في أوساط الجمهور، وبشكل خاص الشباب والمراهقين، وكسِبَتهم ليس من خلال التوعية والتثقيف، وإنما من خلال الآليات الإعلامية القاهرة (بالعنف والقسر).

وهذه الآليات ذات نفوذ قوي على المستمعين والمشاهدين والقراء من هذا العمر، تسلبهم حق الاختيار وتفرض عليهم أنماطًا معينة من الفكر والسلوك.

وهذا الفرض والقهر وسلب الاختيار من أبرز خصائص هذه الآليات؛ كالأفلام والقصص التي تروّج للعنف والجنس... فإنها تشد شرائح المراهقين والشباب، من دون اختيار، وتسلبهم الإرادة والاختيار، من خلال الإثارات الجنسية الحادة، ومشاهد العنف المهيّجة للشباب والمراهقين.

وكذلك؛ الأفكار والنظريات ذات الخصلة الشعارية والعاطفية التي تسلب من الناس كثيرًا فرصَ التعقل والتأمّل والتفكير.

والآليات التي يستخدمها الغرب ومراسلوهم عندنا في الشرق الإسلامي هي: الإذاعة والتلفزة والفضائيات والندوات والمؤتمرات وشبكات الإنترنت والأفلام.

وأعظم من كل ذلك؛ أنهم يستخدمون مؤسساتنا التعليمية والأكاديمية والإعلامية (من الصحافة والإذاعة والتلفزيون والفضائيات) ومؤسسات النشر؛ بل حتى الرياضية، والفنية، والبلدية، والإدارية، لترويج هذه الثقافة.

كانوا يغصبوننا مؤسساتنا المختلفة بأيدي عمّالهم ووكلائهم في منطقتنا؛ لإشاعة الثقافة الغربية وإشاعة التحلل والابتذال والتحرّر من الضوابط الشرعية والأخلاقية والقيم، في أوساطنا[1].

وقد عرف ووعى كل إنسان، يتحسّس ويفهم ما يجري حوله من المؤامرة الثقافية والحضارية الكبرى، هذه الظروف.

فهل بوسع أحد أن يقول إنّ الذي كان يجري كان يمثّل حالة انفتاح حضاري وثقافي للشرق على الغرب؟!

لقد أخذ أبي ﷺ بيدي إلى المدرسة الابتدائية في النجف (وهي مدينة دينية يغلب عليها الطابع الديني)، وأودعني الفصل الدراسي.

فوجدت نفسي، على صغر سني وقلّة تجاربي الحضارية والثقافية، أنني خرجت من وسط حضاري وثقافي - دفعة - ودخلت وسطًا حضاريًا وثقافيًا مختلفًا اختلافًا كليًا عن المساجد والحسينيات وحتى الكتاتيب التي كنا ندرس فيها قبل أن ندخل هذه المؤسسة التعليمية النظامية.

---

١. راجع الملحق رقم (٢): العنصر النسائي المتحلّل؛ القدوة البديلة

لقد كان أبناؤنا يدخلون المؤسسة التعليمية من المرحلة الابتدائية، ويواصلون فيها الدراسة إلى نهاية الإعدادية (الثانوية يومئذ)... فكان الطفل منّا على براءته يشعر منذ أول يوم أنه عندما يدخل المؤسسة التعليمية التي تشرف عليها وزارة التربية والتعليم (المعارف يومئذ)، فإنه يخرج من وسط حضاري وثقافي مختلف عن الوسط الذي يدخل فيه، وبين هذين الوسطين المختلفين جدران المدرسة الابتدائية، ثم يزداد هذا الانفصال في المراحل المتأخرة من الدراسة النظامية.

وعندما يدخل المؤسسة الأكاديمية، يكون أبناؤنا وبناتنا قد تمت صياغتهم الذهنية في مراحل الدراسة الابتدائية والإعدادية لوسط آخر وحضارة وثقافة أخرى غير وسطنا وحضارتنا وثقافتنا.

بالإضافة إلى الآليات المتقدمة، كان هذا الاجتياح الثقافي يجري ضمن برامج مختلفة؛ كالشِعر، والأدب، والقصة، والتمثيل، والتعليم، والأناشيد الوطنية، والبرامج التربوية، وحتى تسميات الشوارع والمحلات والنوادي، وأمثال ذلك[1].

الاجتياح الثقافي والاجتياح العسكري وجهان لعملة واحدة

إنّ هذا الذي كان يجري في ساحتنا الثقافية ولا زال يجري في كثير من بلدان العالم الإسلامي، رغم الوعي الإسلامي الواسع الذي حدث خلال السنين المتأخرة... ليس من مقولة (الانفتاح) و(الحداثة) و(التحرر) في شيء، وإنما هو الاجتياح والغزو الثقافي بعينه.

وهو يجري بنفس الأساليب التي تجري في الغزو العسكري؛ من العنف، وإلغاء حضور ونفوذ وسلطة أصحاب البلد، وفرض نفوذ طرف غريب أجنبي عن البلد.

---

١. وسوف يأتي المزيد من التوضيح حول هذه الآليات والوسائل في الحلقات القادمة من هذه السلسلة بحوله تعالى. (من المحقق)

إلاّ أنّ الذي يجري في ساحة الحرب يتمّ من خلال الآليات العسكرية، والذي يجري في الساحة الثقافية يتم من خلال آليات ومناهج وبرامج ثقافية، ولكنه يحمل نفس معاني (العنف) و(الإلغاء)، وفرض نفوذ ثقافة غربية على البلد، وهدم الثقافة المغلوبة وعزلها، وإشاعة الثقافة الغازية ودعمها وإسنادها.

وهذا هو للأسف ما حصل في العالم الإسلامي خلال هذه الفترة.

ولكن الله تعالى شاء أن ينجلي هذا الليل البهيم الدامس، وينفجر الوعي في نفوس المسلمين في العالم الإسلامي، وينشأ جيل مبارك من الشباب يدرك هذه المؤامرة، ويحاول أن يخرج من قبضتها.

ومن العجب! أنّ هذا الجيل قد تخرّج من نفس هذه المؤسسات التعليمية والأكاديمية وهو يحمل الوعي والحركة والعطاء والعودة إلى الإسلام، ويقدّمه إلى جماهير المسلمين، ويتقدمهم جيل من العلماء تخرّجوا من الحوزات العلمية؛ ليقودوا هذه المعركة الحضارية الضارية مع الغرب، بعد أن سقطت ثقافة الإلحاد في الشرق، وكفى الله المؤمنين القتال.

مأساة القرن العشرين

لقد كان القرن العشرون قرن التحديات الصعبة للعالم الإسلامي من دون شك.

فقد تعرضت في هذا القرن ثروات المسلمين الطبيعية لغارات اقتصادية وعسكرية وسياسية من قبل الغرب، ولكنّ أشد هذه التحديات هو الغزو الثقافي والحضاري للعالم الإسلامي.

وقد شهد هذا القرن أقسى مشاهد الغزو الحضاري على العالم الإسلامي بآليات متطورة ومتقدمة؛ مثل الصحافة، والإذاعة، والتلفزيون، والجامعات، والسينما،

والكتاب، وبأساليب وشعارات رقيقة مثل (الحداثة والتجديد والتطوير والتحرر).

وقد استهدف هذا الغزو الحضاري ثقافتنا وقيمنا بشكل كامل... وإذا فقدت أمة، في صراع من هذا القبيل، ثقافتها وقيمها، فقدت كل أصالتها الحضارية، وأصبحت حالة عائمة في مسار التاريخ، ليس لها أي تأثير وفعل في حركة التاريخ، ولا تملك المناعة التي تحفظها من الأمراض الحضارية، وهي من أخطر ما يصيب الأمة في التاريخ على الإطلاق.

وقد فقدنا في هذه المعركة الكثير من أصالتنا حتى تحولت شرائح من مجتمعنا وأمتنا إلى نسخة رديئة الاستنساخ من الغرب، وكانت المعركة شرسة وضارية بننا وبين الغرب، وقف إلى جانب الغرب فيها حكام وملوك ورؤساء من العالم الإسلامي؛ مثل كمال أتاتورك في تركيا، وأسرة بهلوي في إيران، وأمان الله خان في أفغانستان، ومفكرون ومنظّرون وأدباء مثل؛ طه حسين، وقاسم أمين، وسلامة موسى[1]، ومؤسسات ثقافية، وصحف ومجلات.

توظيف الآليات الحديثة في هذه المعركة

وقد استخدم الغرب في هذه المعركة أحدث الآليات وأكثرها تطورًا؛ استخدم فيها العلم والفن والأدب والإعلام؛ بل العنف والإرهاب أيضا عندما كان لا ينفع العلم والفن والأدب.

وكان آخر هذه الآليات الوسائل الفضائية المتطورة؛ مثل القنوات التلفزيونية الفضائية وشبكات الإنترنت العالمية، وهي أخطر الآليات الحديثة التي ساهمت في هذا الغزو الحضاري إلى اليوم، وهي ذات قدرة واسعة وكبيرة، وبإمكان هذه الآليات أن تُحدث الحرائق الأخلاقية والثقافية والحضارية الواسعة داخل بيوتنا

١. وقد مضى البحث تفصيلًا، في الدور الذي لعبته أمثال هذه الشخصيات على مستوى التخريب الثقافي، في الحلقة الأولى من هذه السلسلة. فراجع. (من المحقق)

وأُسرنا وبسرعة ومساحة قياسية.

وبإمكان هذه الآليات أن تتجاوز كل الحواجز الثقافية والحضارية من دون جهد يذكر.

أ رأيتم كيف تتجاوز الـصـواريخ في ميادين القتال الحواجز الطبيعية والهندسية وميادين الألغام والخطوط الأمامية والخلفية والمدفعية، وتُحدث الانفجار والتخريب والحرائق داخل البيوت والمدن والمؤسسات...؟! كذلك الآليات الفضائية الحديثة؛ فإن بإمكانها أن تُدخل أبشع الانتهاكات الأخلاقية والثقافية إلى عقر بيوتنا وأسرنا، وإلى تراثنا وقيمنا وثقافتنا وأخلاقنا من دون أي جهد أو إشكال يذكر.

ومعنى ذلك؛ أننا نتعرض اليوم لهجوم حضاري شرس يستهدف ثقافتنا وأخلاقنا بصورة واسعة، كما تتعرض اليوم المدن الآمنة لغارات صاروخية مُحمّلة بالرؤوس الجرثومية والكيمياوية والذرية.

أين كانت ساحة الصراع؟

نحن نعلم أننا في حالة صراع شرس مع الغرب، ونعلم أنّ الصراع هو قضية الإنسان في كل القرون والعصور، ونعلم أنّ التاريخ هو الصراع، والقرن الذي يخلو من الصراع يبقى على هامش التاريخ ولا يدخل التاريخ، ونعلم أنّ للصراع متطلبات واستحقاقات وضريبة، وضريبة الصراع صعبة.

كل هذا نعرفه؛ إلّا أنّ الكرة هذه المرة كانت في ساحتنا كما يقول لاعبو الكرة، وكانت بيوتنا وعوائلنا وثقافتنا وقيمنا وأخلاقنا هدفًا مباشرًا للعدو، من دون أي حاجز وعائق، وكان العدو يقاتلنا في داخل بيوتنا، وكنا نواجهه ونقاتله من موقع الدفاع عن أنفسنا وعوائلنا، وموقع الدفاع على كل حال موقع ضعيف بالقياس إلى (الهجوم)، وهذه حقيقة مُرّة من وقائع القرن العشرين الذي مضى بحوادثه

المرّة، ونرجو ألّا تعود إلينا هذه الأحداث في القرن الجديد.

لقد كان الصراع والقتال بين حضارتنا والحضارة المادية الشرقية والغربية يجري في ساحتنا وداخل بيوتنا.

(الاستشراق) و(التغريب)

وإذا أمعنّا النّظر في الدراسات الاستشراقية التي اهتمّ بها الغربيون خلال القرن العشرين، ثم حالة التغريب التي تمكّنت من المسلمين خلال هذا القرن، عرفنا عمق المأساة الحضارية التي حلّت بنا في القرن العشرين.

لقد دخل العدو معاقلنا الحضارية وبيوتنا عن معرفة وفهم، لقد قرأكل شيء عن تاريخنا وعقائدنا وقيمنا وثقافتنا خلال الدراسات الاستشراقية؛ وهذا هو (الاستشراق).

ووضعنا نحن أعرافنا وقيمنا وثقافتنا وحتى لغتنا ونظام بيوتنا ومجتمعاتنا تحت تصرفهم، وأخذنا منهم الثقافة والقيم والأخلاق والأعراف؛ وهذا هو (التغريب).

إذًا؛ كان الصراع يجري في ساحة حياتنا، وليس في ساحتهم.

ولو كان الصراع يجري في ساحتهم لانعكس الحال، ونهضنا نحن بالدراسات (الاستغرابية)، وخضعوا هم لـ (التشريق).

ولو كان الصراع كَرًّا وفَرًّا كما هي العادة في الصراع المتكافئ، لكانت المكاسب والانتكاسات والهزائم موزعة على الطرفين، ولكن شيئًا من ذلك لم يحدث، وكان نصيبنا في هذه المعركة الحضارية الهزائم النفسية وحالة التعويم الحضاري.

وأصبحت ثقافتنا وتراثنا وأعرافنا وعوائلنا هدفًا مباشرًا للعدو لم يسلم منها إلاّ ما سلّم الله، وأصبح آباؤنا يتلقّون منهم أعرافهم وتقاليدهم وثقافتهم وحتى الزّي الذي يلبسونه، والحرف الذي يكتبونه، والمصطلحات التي يتداولونها، وذلك عن طريق الإذاعة والصحافة والأفلام والقنوات الفضائية المفتوحة على بلادنا.

الفاصل الحضاري بين الحضارتين

والفاصل الحضاري بين الحضارتين شاسع وكبير؛ بين ما يتلقاه أبناؤنا وبناتنا داخل أُسرهم ومساجدهم ونواديهم من الأعراف والتقاليد والثقافة، وما يتلقونه من الأعراف والتقاليد والثقافات من القنوات الفضائية من تحلل وسقوط وابتذال واستهتار بالقيم.

إنّ حركة خفيفة على أزرار التلفزيون تكفي لنقل أبنائنا وبناتنا من أجواء القرآن وحب النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام والعفاف والحجاب والحياء إلى أجواء أخرى تختلف عن هذه الأجواء بالكلية و١٨٠ درجة بالاتجاه المعاكس تمامًا.

وهذه المسافة الشاسعة بين القرآن والدعاء وبين ومشاهد التحلل والفساد على شاشة التلفزيون، يقطعها أولادنا وبناتنا في كل يوم عدة مرات، وبشكل سريع.

سقوط المناعة

والنتيجة الطبيعية لذلك هي انتهاك الحرمات في نفوس أبنائنا وبناتنا، فلا تبقى في نفوسهم وأذهانهم حرمة لقيمة من القيم... وهذه الحالة هي ما نعبّر عنها اليوم بـ (سقوط المناعة)، وعندما يفقد الشباب المناعة الثقافية والحضارية، يتعرضون بصورة واسعة للعاهات والأمراض الحضارية والانحرافات الخُلقية والثقافية والسلوكية.

وعندئذ؛ تتساقط القيم الحضارية من حياة المجتمع، وهذا الذي حدث بالفعل في حياتنا الحضارية المعاصرة، لولا رحمة الله وستره.

علاج التعويم الحضاري

وإذا عرفنا خطر (التعويم الحضاري) في حياتنا الثقافية المعاصرة، فسنعرف كيف نواجه هذا الخطر المقبل علينا من ناحية الغرب.

إنّ علاج حالة التعويم هذه يكمن في إعادة الجسور بيننا وبين الماضي، ومن خلال هذه الجسور يتوارث جيلنا ثقافة الوحي وقيَمه وأعرافنا وأخلاقنا، ونستعيد أصالتنا الثقافية والحضارية.

والجسور التي تربط حاضرنا بالماضي ثلاثة:

١. الأسرة.
٢. المدرسة.
٣. المسجد.

وقد تحدثنا عنها بالتفصيل في كتاب خاص بهذا الموضوع بعنوان (الجسور الثلاثة)[١]. هذه الجسور الثلاثة قلاع ثلاثة تحمي حاضرنا وتحصننا من الزحف الحضاري والثقافي للغرب.

وتمتلك هذه الحصون من المقاومة الشيء الكثير، وأكثر هذه الحصون مقاومة وصلابة مقابل زحف الحضارة الغربية هو (المسجد)، فعندما تصدَّع بنيان الأسرة وتعرضت المدرسة للغزو الحضاري والثقافي، بقي المسجد يقاوم التيار الثقافي القادم علينا من الغرب، وقد سَلِم الذين احتموا ببيوت الله من تأثير إعصار السموم المقبل علينا من الغرب.

لا منافاة بين الثقافة والعلم

إنّ الثقافة أمر خطير في حياتنا، فليس من بأس علينا أن نأخذ العلم من أي مصدر وأي يد، ولكن ما لا يصح ولا يجوز أن نأخذ الثقافة من غير مصدر الوحي والقنوات التي تصلنا بالوحي.

إنّ العلم لا دور له في بناء شخصية الإنسان وعقله ونفسه وروحه، وليس

١. قد مضى تفصيل الكلام في هذه الجسور في الحلقة الأولى من هذه السلسلة. فراجع. (من المحقق)

للعلم خطاب بهذا الاتجاه، فقد يحمل العلمَ أناس صالحون كما قد يحمله آخرون غير صالحين، فليس للفيزياء والكيمياء والطب والصيدلة والجراحة والرياضيات واللغة والنحو خطاب إلى الإنسان في أمر تقويم سلوكه إطلاقًا، وهذا هو شأن العلم؛ بخلاف الأخلاق والعرفان والتوحيد والفقه والقرآن والدعاء... فإنّ له خطابًا موجّهًا إلى الإنسان لتقويم سلوكه، وهذه هي المعرفة والثقافة.

وكما أن هناك معرفة وثقافة ربانية تدعو الإنسان إلى الله، كذلك هناك معرفة وثقافة جاهلية تدعو الإنسان إلى السقوط إلى عالم الحيوان والتردي في الأهواء والشهوات، ولها خطاب بالاتجاه العكسي للخطاب الأول، وهذه هي الثقافات الجاهلية في مقابل الثقافة الربانية.

ولنا أن نأخذ العلم من أيّ يد، ومن أيّ مكان ومن أيّ مصدر؛ حتى من خصومنا وأعدائنا، فإنّ العلم قوة، ولابد أن يتسلح الإنسان المسلم بالقوة ويتسلمها حتى لو كان من يد خصمه وعدوه[1]، ولكن ليس لنا أن نأخذ الثقافة إلاّ من مصدر الوحي والقنوات التي تُفضي إلى مصدر الوحي.

فإنّ الثقافة التي جاء بها الوحي هي الثقافة الوحيدة التي تنجي الإنسان وتنقذه من السقوط والهلاك، وما عدا ذلك من الثقافات سقوط وهلاك وتردٍّ وجاهلية، وهذه الثقافة الربانية التي نعرفها في القرآن وفي حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام هي التي تحصننا تجاه الأهواء والشهوات وفِتن السراء والضراء والانحرافات الفكرية والثقافية.

---

١. طبعا لابد في المقام من بيان نقطة مهمة، وهي أنه ليس أي قوة وبأي نحوٍ كان يمكن أن يستقبلها المسلم من العدو والخصم، بل لابد من تقييد ذلك بما إذا لم يؤد إلى تقوية هذا العدو وتسلطه على بلاد المسلمين، والذي يشخص ذلك هو الولي الفقيه في الدولة الإسلامية في زمن الغيبة. وفي نفس الوقت يجب على المسلم تقوية وتطوير قدراته الذاتية والعلمية والتكنولوجية للوصول إلى حد الاكتفاء الذاتي والاستغناء عن الآخرين. (من المحقق)

إنّ في قراءة القرآن واللجوء إلى الله في الصلاة والدعاء، وفي معارف الإسلام وهدى القرآن وهدى رسول الله ﷺ وأهل بيته، تحصين وبناء لشخصية هذا الجيل، وإذا تحصّن هذا الجيل بهذه الثقافة الربانية، لا يكاد يضره بعد ذلك شيء من عوامل التخريب في حياتنا الحضارية والثقافية.

أسأل الله تعالى أن يأخذ بأيدي ناشئتنا والجيل الصاعد من أبنائنا وبناتنا في مواجهة هذا التّحدّي الصعب، ويبارك في جهود المؤمنين المخلصين من أبناء هذه الأمة الذين يضعون كل إمكاناتهم وراحتهم وخبراتهم تحت تصرف هذا الجيل ليعينوه على بناء نفسه وعقله على هدى الله ورسوله.

التعددية الدينية

ظهرت في أوروبا موجة التعددية الدينية كرد فعل تجاه تعنّت الكنيسة الكاثوليكية التي كانت ترفض الانفتاح على أفكار الآخرين بشكل مطلق، وليس فقط من غير المسيحيين؛ بل من غير الكنيسة الكاثوليكية.

وكان هذا الرفض والتعنّت الشديد تجاه الآخرين سببًا لحدوث ردّات فعل قوية في الأوساط الثقافية بأوروبا يومئذ، وكان منها ظهور البروتستانتية[1] التي نهض بها لوثر وكالفن، وفي الآونة الأخيرة ظهور التعددية الدينية على يد (جون

١. راجع الملحق رقم (٣): البروتستانتية (المنشأ والعوامل)

هيك)[1] الأمريكي[2].

فقد درس جان هيك في الجامعات البريطانية، ورأى حالة الإقصاء والرفض لأفكار الآخريـن بصورة متعنتة غير منطقية من قبل الكنيسة الكاثوليكية، فتمخّضت في عقله نظرية (التعددية الدينية)، وكتب في ذلك كتابه المعروف عن (فلسفة الدين).

وقد تأثر (جون هيك) بكتابات عالم (الكلام والعقائد) الألماني (شلايرماخر)[3]،

---

١. (John Harwood Hick) (١٩٢٢ - ٢٠١٢). فيلسوف وعالم لاهوت بريطاني أحد أبرز فلاسفة الدين ولاهوتيّي القرن العشرين وأكثرهم تميّزًا وفقًا للعديد من العلماء والفلاسفة الغربيين، ويعود تميّزه إلى آرائه الفلسفية والفكرية التي تبناها وانفرد بها عن غيره من الفلاسفة ورجال الدين المسيحي لاسيما أنه عمل قسّيسًا في العديد من الكنائس المسيحية، وتنقّل في السّلّم الكنسي إلى الدرجات العليا.
لكنّ هيك خرج عن الخط العقدي الكنسي عندما قال بنظرية (التعددية الدينية) التي كانت من أبرز أفكاره التي توصل إليها ودعا لاتّباعها، والتي ينبع فهمه لها من خلال اعتقاده بمركزية وجود الله في الكون، وأنّ هذه الحقيقة تعتقد بها كل الديانات ولا تختص بالمسيحية. من هنا؛ خالف العقيدة المسيحية التي تقوم على أنّ خلاص البشرية لا يتحقق إلا من خلال الديانة المسيحية، فاعتبر هيك أنّ هذا التصوّر غير صحيح وغير منطقي؛ لأنه سيضع أتباع الأديان الأخرى وكل الناس في خانة عدم الخلاص يوم القيامة؛ لذلك يذهب هيك إلى ضرورة إقامة ثورة في فهم العقيدة المسيحية من جديد تقوم على فكرة مفادها أنّ كل الأديان العالمية فيها نظرة صحيحة للخلاص. (من المحقق)
للاطلاع راجع:
- وجيه قانصو، التعددية الدينية في فلسفة جون هيك.
- أنمار محمد، الفيلسوف جون هيك: حياته وأهم أفكاره اللاهوتية.

٢. بناء على ما تقدم في الهامش السابق، فإن جون هيك بريطاني الأصل وليس أمريكيا. (من المحقق)

٣. (Frederic Schleiermache) (١٧٦٨ – ١٨٣٤). فيلسوف لاهوتي رومانسي ألماني، سُمّي (أستاذًا فوق العادة) للّاهوت بجامعة هال، وأقبل على دروسه جمع غفير من الطلاب، وقد انخرط برفقة شتايم وهمبولت في عمليّة الإصلاح العقلي والأخلاقي. انتخب شلايرماخر سنة ١٨١١ عضوًا بأكاديميّة العلوم البروسيّة، وأصدر مؤلّفات عدّة منها «الإيمان المسيحي طبقًا

وانطلق في وضع أسس نظرية التعددية الدينية، متأثرًا بأفكار شلايرماخر.

وخلاصة ما يذهب إليه هذا الألماني أنّ للدين لُبّ وقشور. أما لُبّ الدين، فهو الانسلاخ من الذات، والعروج إلى الله. وأما القشور، فهي المسائل الأخرى في الدين كالعبادات والطقوس والأحكام الدينية. وفي كل الأديان هذه القشور تخدم اللب.

التعددية والشك

إن مآل التعددية الدينية إلى الشك في الحق وفي القيم، ورفض الحق المطلق والقيمة المطلقة وإن كانت غير صريحة في ذلك.

وموجة الشك ليست جديدة في تـاريخ الفلسفة، فقد ظهرت لأول مرة في اليونان على يد السوفسطائيين[1] الذين كانوا يشكّكون في وجود الدافع الموضوعي، وينكرون الحقائق في الكون.

لمبادئ الكنيسة الإنجيليّة» (١٨٢١-١٨٢٢)، «الجدل» (١٨٣٦)، «الأخلاق الفلسفيّة» (١٨٣٦)، «دروس في علم الجمال» (١٨٤٢)... وكان له تأثير واسع في المذهب البروتستانتي.

من أهم ما يميز شلايرماخر أنه كان من أهم وأوائل مؤسسي علم (الهرمنوطيقا) أو ما يسمى اليوم بـ (فن التأويل أو فن تحليل وفهم النصوص)، والهرمنوطيقا باختصار هي: اتخاذ طرق لبناء قوانين تساعد على إدراك عملية الفهم للنص بشكل عام، والديني منه بشكل خاص، بالاعتماد على التأويل.

ومن أهم أفكاره ونظرياته أن ليس للحقائق صفة نهائية، وأنّ الدين (المسيحية) نتاج الضمير الإنساني، ففسر الإنجيل على هذا الاعتبار. (من المحقق)

للاطلاع أكثر راجع:

- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص٣٩٢.
- جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، ص٣٩٦ – ٣٩٧.
- حسين اليوسف، الهرمنوطيقا وتغيّر الحكم الشرعي بتغيّر الزمان والمكان، ص٩٢ - ١١٦.

١. راجع الملحق رقم (٤): السوفسطائيون والسفسطة

ولما كانت هذه المدرسة متناقضة اندثرت في موطنها.

ولكن الفلاسفة الأوروبيين أعادوا الحياة إلى هذه المدرسة المندثرة مرة أخرى، فأسسوا مدارس الشك الحديثة، فعاد الشك إلى الفلسفة لأول مرة في العصر الحديث في أوروبا على يد (باركلي)[1]، ثم تطورت مدرسة الشك على يد (ديفيد هيوم)[2]؛ حيث وسّع دائرة الشك حتى إلى قانون العلية.

---

١. (George berkeley) (١٦٨٥ – ١٧٥٣). فيلسوف إنجليزي. إنّ أهم ما يميّز باركلي هو اعتقاده بالمبدأ التصوري الذي أدى به إلى إنكار الوجود المادي والقول باللامادية؛ بمعنى أنّ الطبيعة عبارة عن جملة معانٍ، ولا يوجد رابط ذاتي بين ما يسمى علة وما يسمى معلولًا. فالموضوعات المباشرة للفكر الإنساني هي المعاني دون الأشياء؛ أي أنّ الإنسان إنما يدرك معاني الأشياء لا الأشياء نفسها، فالذهن يعرف الأشياء بالواسطة لا مباشرة، يعرفها بواسطة ما لديه من معانٍ عنها. ويستدل باركلي على ذلك في كتابه (نظرية جديدة للرؤية)؛ فمثلا البصر لا يدرك بذاته مقادير الأشياء وأوضاعها ومسافاتها، وإنما ما يدركه البصر ما هو إلا علامات أو دلائل على المقادير أو الأوضاع أو المسافات؛ ذلك بأن إدراك الكيفيات الأولية يرجع في الأصل إلى اللمس وحده، وبتكرار التجربة ينشأ تقارن بين مدركات اللمس وبين بعض الإحساسات البصرية مثل اختلافات الأضواء والألوان وبعض الإحساسات الناجمة من حركات العينين، فتصير هذه كافية لتقدير مسافات الأشياء وأوضاعها ومقاديرها، والعادة هي التي لا تدعنا نشعر بهذه العملية الطويلة والمركّبة للإدراك. (من المحقق)
للاطلاع أكثر راجع:
يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص١٦٢ - ١٧١.

٢. (David Hume) (١٧١١ – ١٧٧٦). فيلسوف وسياسي إنجليزي، مقولته المشهورة: (قررت أن أجعل من الطبيعة البشرية موضوعًا رئيسيًا لدراستي ومصدرًا أساسيًا أستنبط منه كل حقيقة...)؛ لذلك كان أهم مؤلفاته (بحث في الطبيعة البشرية) الذي أدخل فيه الطريقة التجريبية في النظر إلى المسائل الأخلاقية؛ أي بناء العلوم الإنسانية على أساس التجربة والملاحظة لا على أساس الماورائيات. من هنا؛ تأثر هيوم بفكر هوبز إلى حدّ بعيد، وأخذ عنه المذهب التجريبي، وأنكر الحق الإلهي، ونقد الأدلة على وجود الله، وأنكر قانون العلية، وقال بقانون المنفعة؛ أي أنّ القوانين التي تحكم الإنسان ليست سوى مواثيق وعهود نافعة للفرد تضمن له دوام واستقرار الحيازة والتملّك. وهو أكثر جرأة من لوك وباركلي في إعلانه الشك صراحة، وكان ينعت نفسه بالشكاك، ويرى أنّ الفلسفة إنما هي هذا الشك، وأنّ

ومآل التعددية الدينية كما قلنا إلى حالة الشك في وجود (حق مطلق) و(قيمة مطلقة)، ومآل ذلك إلى التشكيك فيما يقابلهما (الباطل وأضداد القيم).

القضايا النسبية والقضايا المطلقة

١. القضايا النسبية

ويمكن أن نذكر كنموذج للنسبية طائفتين من القضايا:

الطائفة الأولى: الجماليات والذوقيات

هناك قضايا وتقييمات تقوم على أساس ذوقي مثل المسائل الجمالية، فإنه من الممكن أن يختلف اثنان في تقييم مشهد جمالي بين السلب والإيجاب، أو على درجات مختلفة في التفاضل في ذلك المشهد، كما يختلف الناس في تقييم قصيدة من الشعر أو جمال الصوت أو الصورة.

ولا شك أن هذه القضايا ليست مطلقة، وإنما يختلف الحكم تجاهها باختلاف أذواق الناس.

الطائفة الثانية: المصالح والمفاسد

وهناك طائفة أخرى من القضايا النسبية؛ وهي حالات المصلحة والمفسدة، فقد يكون تصميم بناء صالحًا للمدرسة وغير صالح للسجن، وبالعكس، وقد يكون دواء صالحًا لمريض وغير صالح لمريض آخر. وهذه أيضًا حالة ثانية من النسبية لا نشك فيها.

الحياة العملية يكفي فيها وحي الغريزة. (من المحقق)

للاطلاع أكثر راجع:

- عبد الوهاب الكيالي، موسوعة السياسة، ج٧، ص٢٤٠ – ٢٤٢.
- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص١٧٢ - ١٨٠.

٢. القضايا المطلقة

في مقابل هذه القضايا النسبية، قضايا مطلقة لا يمكن التشكيك فيها، ويمكن أن نذكر كنموذج لها خمس طوائف من القضايا:

الطائفة الأولى: المسائل الرياضية

من هذه القضايا المطلقة المسائل الرياضية؛ فمثلا: مجموع زوايا المثلث ١٨٠ درجة لا تزيد ولا تنقص، ولا يختلف مثلث عن مثلث في الأرض ولا في السماء، والخطان المتوازيان لا يلتقيان على الإطلاق في أي مكان وأي زمان.

الطائفة الثانية: المسائل الفيزيائية

وكذلك القضايا الفيزيائية؛ فإن سرعة الضوء أكثر من سرعة الصوت في كل مكان وكل زمان، والمعادن تتمدد بالحرارة، والحركة من مصادر الطاقة الحرارية في كل الأحوال.

هاتان طائفتان من الحقائق المطلقة في الرياضيات وفي حقول العلوم التجريبية كالفيزياء والكيمياء والميكانيك.

الطائفة الثالثة: مسائل التحسين والتقبيح

وهناك طائفة ثالثة من القضايا المطلقة؛ وهي مسائل التحسين والتقبيح في القيم وأضداد القيم، فإن الظلم قبيح، ولا يمكن أن يكون حسنًا، والعدل حسن جميل، ولا يمكن أن يكون قبيحًا، والأمانة جميلة والخيانة قبيحة... وهذه حقائق مطلقة لا تقبل التشكيك. وقد يرتكب الإنسان الكذب القبيح لضرورة، ولكن ليس معنى ذلك أنّ الكذب قد تحوّل من قائمة أضداد القيم إلى قائمة القيم، وإنما معنى ذلك تقديم مفسدة على مفسدة أكبر عندما يقع الإنسان بين مفسدتين لابد له أن يختار إحداهما.

الطائفة الرابعة: دائرة الغيب

وهناك طائفة رابعة من الحقائق المطلقة تدخل في دائرة الغيب، وفي مقدمة هذه الحقائق (الله سبحانه وتعالى) الحقيقة المطلقة في الكون كله، وكذلك الملائكة والجنة والنار والصراط والميزان...

وقد أقرّت بهذه الطائفة جميع الأديان الإلهية، كما أقر بالطائفة الثالثة جميع العقلاء في العالم.

الطائفة الخامسة: الصراط المستقيم

وهناك طائفة خامسة من الحقائق، وهي المنهج الحق المستقيم الذي لا عِوج له في حياة الإنسان، وهو الذي يعبّر عنه القرآن في سورة الفاتحة بـ (الصراط المستقيم) في قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[1]، والصراط المستقيم لا يتعدد ولا يتغيّر، ولذلك يختار القرآن لهذا المعنى كلمة الصراط دون السبيل والطريق والمسلك؛ لأن الصراط في اللغة العربية لا يتعدد، وليس له هيئة جمع بخلاف الطريق والسبيل والمسلك، فإنها تجمع على (سُبل) و(مسالك) و(طُرق).

الإسلام هو الصراط المستقيم

والإسلام هو الصراط المستقيم الذي خطَّه الله تعالى للناس في معاشهم ومعادهم، ولن يقبل الله من عباده دينًا غير الإسلام ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[2]، وكل رسالات الله تعالى (إسلام).

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ

١. الفاتحة: ٦.

٢. آل عمران: ١٩.

وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[1].

إذًا؛ كل رسالات الله تعالى إسلام.

وهو دين واحد لا تعدد فيه، غير أنه مراحل ومستويات لمراحل مختلفة من تاريخ الإنسان على وجه الأرض، فلكلّ مرحلة من تاريخ الإنسان مرحلة من هذا المنهج الإلهي الشامل، فإذا تجاوز الإنسان تلك الحِقبة كان له مرحلة أخرى من هذا الدين؛ تمامًا كما أن ما يدرسه الطالب من العلوم الرياضية والتجريبية على امتداد الدراسة الابتدائية والإعدادية والثانوية والأكاديمية دراسة واحدة وقواعد وأصول واحدة غير أنها صُمّمت لمراحل مختلفة لا اختلاف ولا تعدد فيها، ولكنها مراحل مختلفة لمراحل مختلفة من عمر الطالب العقلي والعلمي.

وكذلك؛ شرائع الله مراحل مختلفة لدين الله صُمّمت لمراحل مختلفة من تاريخ نضج الإنسان العقلي.

أما شريعة خاتم النبيين، فهي آخر مراحل هذا الدين الواحد المتكامل، أنزلها الله على خاتم أنبيائه محمد ﷺ.

فكل رسالة من رسالات الله تأتي مبشّرة بالرسالة القادمة ومصدّقة بالرسالة المتقدمة.

فقد جاء عيسى بن مريم عليه السلام مصدّقًا للتوراة بين يديه: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾[2].

---

١. آل عمران: ٨٤ - ٨٥.

٢. المائدة: ٤٦.

ولكن ليس معنى هذا التصديق أن يعمل أتباع عيسى بن مريم عليه السلام بالتوراة؛ بل بالإنجيل: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[1].

ثم تأتي المرحلة الأخيرة الخاتمة لرسالات الله مصدّقة بما بين يديها من صحف إبراهيم والزبور والتوراة والإنجيل، وفي نفس الوقت مهيمنة عليها، ومعنى الهيمنة أنّ القرآن حالة متكاملة لصحف إبراهيم والزبور والتوراة والإنجيل.

كما أن الدراسات الأكاديمية العليا التي يتلقاها الطالب عن (المثلث) في الرياضيات هي حالة متكاملة لما درسه في الابتدائية عن (المثلث) ومهيمنة عليها، ولكنها ليست حالة أخرى غريبة عنها متخالفة معها. كذلك؛ هذا الدين منهاج واحد بمراحل مختلفة لمراحل متعددة من تاريخ الإنسان. تأمّل في هذه الآيات:

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[2].

وهذه الآيات تتضمن مجموعة من النقاط:

النقطة الأولى: أنّ الله تعالى أنزل القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم بالحق.

النقطة الثانية: أنّ هذا القرآن مصدِّق لما تقدمه من الكتب ومهيمن عليها، فلا اختلاف بينها، ولا تخالف، ولا تقاطع، وإنما هي مراحل مختلفة متكاملة من دين واحد وشريعة واحدة.

---

١. المائدة: ٤٧.

٢. المائدة: ٤٨.

النقطة الثالثة: أنّ الحكم بما أنزل فيه دون غيره من الكتب المتقدمة عليه.

النقطة الرابعة: أنّ هذا القرآن وما تقدمه من الكتب كله من عند الله، قد جعل الله تعالى كل واحد منها منهاجًا وشِرعة لمرحلة من مراحل نضج الإنسان العقلي.

الملحقات

الملحق (١): الغزو الفرنسي لمصر وآثاره السلبية

لقد كان للغزو الفرنسي بقيادة نابليون بونابرت أثره السلبي والواضح على مصر بشكل خاص والمنطقة بشكل عام على المستوى الاجتماعي والثقافي، فقد أدى ذلك إلى حصول اتصال بين الثقافة والحضارة العربية والثقافة والحضارة الأوروبية، مما أدى إلى انتقال الكثير من العادات والثقافات الغربية إلى مصر، وإنشاء مجمعات ومعاهد علمية تُعنى بتدريس هذه الثقافات، وأصبحت مصر ميدانًا خصبًا للثقافة الفرنسية، وأصبح الأدب الفرنسي أحبّ الألوان إلى المصريين، كما انتقلت وسائل الترفيه المفسدة للأخلاق، فتم افتتاح ملاهٍ ومراقص ليلية، وأكشاك الموسيقا، ومصانع الخمر، وبارات الخمر والبيرة، وانتشار المعصية والمجاهرة بها، والتعدي على الحرمات... واستمرت محاولة التغيير الثقافي ونقل الفساد الغربي إلى المنطقة حتى بعد انسحاب نابليون وانهزامه أمام المقاومة الشعبية.

وما كانت هذه الالتفاتة من نابليون وغيره من المستعمرين إلى ضرورة التغيير الثقافي إلا بعدما رأى هذا الاستشراس من بعض المسلمين المخلصين في الدفاع عن أراضيهم وثرواتهم ومقدساتهم، يقول الشهيد محمد الصدر: (وقد وُوجه الاستعمار الحديث أيضًا مواجهات دموية، ابتداء بغزو نابليون لمصر، و انتهاء بغزو الإنكليز للعراق خلال الحرب العالمية الأولى. وقد كان الاتجاه العام لهذه المواجهات هو التضحية في سبيل الإسلام المنتج للنجاح في التمحيص).

وقد كان نابليون نفسه مقتنعا بتأثير العقيدة والثقافة والأمور المعنوية على الجنود وعلى نتائج أي معركة عسكرية، وينقل البعض عنه قوله: (إنّ العامل المعنوي في الحرب أكثر أهمية من العامل المادي بنسبة ثلاثة إلى واحد)[1].

---

١. لمعلومات أكثر راجع:
- محمد الصدر، تاريخ الغيبة، ج٤، ص٦٢٣.

الملحق (٢): العنصر النسائي المتحلّل؛ القدوة البديلة

إن من أخطر وسائل الغزو الثقافي هو اختراق أجهزة الدولة ووسائلها الإعلامية من قِبل أبواق الغرب والمتأثرين بثقافتهم، والأخطر من ذلك الاستفادة من العنصر النسائي في مثل هذه المؤسسات؛ حيث إن المخاطب المسلم لا يرى إلا هذه النماذج ولا يسمع إلا منها، وبالتالي سوف يخلق ذلك قدوة بديلة عن القدوة التي أرادتها له الحضارة الإسلامية، وللأسف كانت هناك استهانة ولا مبالاة من قبل المعنيين بل في كثير من الأحيان كان هناك تعمّد في فسح المجال لمثل هؤلاء.

يُحكى أنه في بعض الدول الخليجية كانت العربات التلفزيونية تحمل النساء السافرات المتبرجات من الموظفات في التلفزيون إلى الأسواق، وتقوم عدسات الكاميرات بتصويرهن على أنهن يترددن إلى الأسـواق ويشترين حاجياتهن، وذلك ترويجًا وإشاعة للسفور وتحجيما للحجاب، والإشاعة للرأي العام بأن السفور هو الطاغي على المشهد في الخارج وعلى أرض الواقع.

إن التأثّر بالثقافة الغربية المستوردة لم يؤد إلى تحجيم الثقافة الإسلامية فحسب بل إلى سوء الخلق ومعاداة هذه الثقافة في كثير من الأحيان؛ فقد أصبح الحجاب مثلًا مِثالًا للتعصب والرجعية والتخلف إلى درجة أنّ المحجبة والملتزمة؛ حتى في الدول ذات الأكثرية المسلمة، أصبحت تشعر بالحرج؛ لأنها تُشتم وتُهان عندما تسير في الشوارع والأسواق بحجابها وسترها، وأنا شاهدت بأم

- محمود شيت خطاب، الرسول القائد، ص٧٩.
- أحمد الحتة، تاريخ مصر الاقتصادي في القرن التاسع عشر، ص٣٥.
- أحمد الشلق، الحرب والدولة العثمانية من الخضوع إلى المواجهة، ص١٥٣.
- المجلس الأعلى للثقافة، المرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر، ص١١٧.
- صلاح هريدي، دراسات في تاريخ مصر الحديث والمعاصر، ج١، ص٤٤٦.
- حسين مؤنس، الشرق الإسلامي في العصر الحديث، ص٩٠.
- محمد صبري، تاريخ مصر من محمد علي إلى اليوم، ص٢٧.

العين وسمعت بأذني عندما كنت أمشي في أحد شوارع إحدى الدول العربية - وغالبيتها مسلمون - كيف أنّ أحد المارّة شتم امرأة محجبة ومحتشمة وترتدي العباءة وأساء الأدب معها وشبهها بـ (كيس الزبالة) أجلّكم الله. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن ثمّة خلل وخلأ في الثقافة الإسلامية بل الثقافة الأخلاقية والإنسانية لدى عموم الناس وحلّت محلها ثقافة أخرى معاكسة ومعادية تمامًا بفضل المؤسسات والمراكز الإعلامية العميلة والتي أنشئت خصّيصًا لأجل ذلك.

لذلك؛ ينبغي على المتصدّين للشأن العام للمسلمين لاسيما أصحاب المنابر أن يصححوا هذا الخلل ويملأوا هذا الخلأ عند الشباب قبل أن يملأه غيرهم، وأن يختاروا له المناسب، وأن يبتعدوا عن تسطيح العقول بالمعلومات السطحية والمغلوطة والكاذبة، وأن يضعوا البرامج التثقيفية المفيدة مبتعدين عن الاستعراض والبحث عن الإحصائيات وزيادة الأعداد الوهمية و(الترينديات)، والأهم من ذلك كله هو الإخلاص في العمل.

الملحق (٣): البروتستانتية (المنشأ والعوامل)

عوامل ظهور البروتستانتية

هناك عوامل متعددة أدت إلى ظهور الكنيسة البروتستانتية؛ وأهمها:

١. تدهور المستويات الأخلاقية في الكنيسة الكاثوليكية، وتفشي حالات الفساد، من خلال جمع الأموال بطرق غير مشروعة كفرض الضرائب ومصادرة أملاك رجال الكنيسة بعد وفاتهم. وكذلك ارتكاب الفواحش كالزنا والشذوذ الجنسي من قبل رجال الكنيسة.

٢. ظلم واستبداد الكنيسة، من خلال اختيار رجال الدين على حسب ثرواتهم والرشوة التي يدفعونها في مقابل التصدي لهذا المنصب خاصة إذا كان متنفّذًا أو أحد رجال السياسة؛ بالإضافة إلى سيطرتها الكاملة على الملوك والولايات والدول، وتنكيلها بمن يخالف رأيها من خلال التجسس ومحاكم التفتيش، والتجاوز عن رجال الكنيسة المذنبين مهما كان ذنبهم. كان تفسير الكتاب المقدس محصورًا بهم ولا يجوز لأي أحد غيرهم تفسيره أو تأويله، ووصل بهم الأمر إلى إعدام أو حرق أو نفي كل من يخالف فكرة في كتابهم المقدس أو تفسيرهم له دون السماح له بالدفاع أو تبرير أو إظهار الدليل. وكان الإنجيل هو المصدر الوحيد للمعرفة حتى أن الكنيسة كانت متسلطة ومسيطرة على العلوم التجريبية

٣. وهو الأهم من بين العوامل الأخرى؛ وهو بيع ما يسمى بـ (صكوك الغفران)؛ حيث كان الوعّاظ يجوبون أنحاء أوروبا عارضين على النصارى رسائل غفران، وكانوا يروّجون بينهم بأن البابا يستقي من كنوز استحقاقات المسيح والعذراء وذخائر القديسين التي هي عبارة عن بقايا أمتعتهم، وكانوا يعطون الناس لقاء تقدمة معيّنة أو مال يدفعونه ورقة تمكّنهم من طلب الحِلّ من خطاياهم وغفرانها، أو تعفيهم من بعض

التزاماتهم، أو تلغي عقوبات عليهم بعد موتهم، وكان الوعاظ يجمعون هذا المال ويعطونه للبابا الذي يتصرف به في مصلحة الكنيسة كبناء الكنائس والمعابد أو التصرف الشخصي.

وكانت صكوك الغفران التي يعطيها الكاهن على نوعين:

النوع الأول: صكوك الغفران للأحياء؛ حيث كان على كل من يريد الحصول على هذا الصك أن يندم على خطاياه وأن يعترف بها أمام الكاهن، ثم ينفّذ العقوبات التي يفرضها عليه الكاهن لكي يكفّر عن ذنوبه المرتكبة.

النوع الثاني: صكوك الغفران للأموات؛ وهي عبارة عن الحصول على صك لتحرير النفس من العقوبة والمطّهر، ويمكن الحصول على هذا الصك كتابة، وينصّ الصك على عدد السنين التي يريد الطالب له أن يعفي نفسه من العقاب والتطهير، وكان لكل صك ثمن معين؛ إما من خلال التضحيات الشخصية أو من خلال دفع مبلغ من المال.

منشأ البروتستانتية

بما أنّ هذا المنهج لم يكن متكاملًا، ولم يكن ملبيًا لجميع احتياجات الناس آنذاك؛ وخصوصًا أنه كان يعتني بالجانب العبادي المتحجّر دون الجانب المعاملاتي؛ بالإضافة إلى أنه حذف منه الأحكام الشرعية الفقهية، ونتيجة للظلم والاستبداد واللعب على عقول الناس الذي كانت تمارسه الكنيسة الكاثوليكية متمثلة برجال الدين الكنسيين، لم يكن هذا النهج قادرًا على إدارة المجتمع، ولم يكن أمام الأوروبيين سوى القيام ضد هذا الدين ورجاله، وإقصائهم عن حكم دنياهم، وقيادة حركة بلادهم؛ لذا بدأوا في القرنين الخامس والسادس عشر العمل على تقوية الاعتقاد بقدرة وقيمة العقل في قبال النقل، وقدرة الإنسان على تفسير الدين والوحي بنفسه، فقويت شوكة العقل، وفاق ما عداه من

معايير تنظيم الحياة، فأبعد الدين عن الدولة، وأقصى رجاله عن مجتمعه باعثًا إياهم إلى الدول الأخرى في مهمات رسمية تحت عنوان التبشير والاستشراق.

من هنا عُرف القرن التاسع عشر بعصر الإلحاد، وقد تميّزت تلك الفترة باعتبار الإنسان وعقله وما يصل إليه تفكيره هو الملاك والأساس في كل معرفة إلى درجة الاعتقاد به دون الله، فأقاموا الإنسان مقام الله، والعقل مقام الوحي، وأنكروا وجود ما وراء الطبيعة.

ومن أهم الشخصيات التي برزت في هذا المجال (مارتن لوثر) الذي أسس للديانة البروتستانتية، وأنشئت الكنائس على هذا المبدأ، مدّعيًا من خلال نظريته ومذهبه أن البروتستانتية هي طريق الخلاص الوحيد. وادعى في حركته هذه أن تفسير النصّ الديني ليس حِكرا على رجال الكنيسة؛ بل يمكن للعوام أن يفسروه ويفهموه، ومن هنا نشأ علم وفنّ جديد تحت عنوان (الهرمنوطيقا أو فن التأويل والتفسير).

كما عارض مارتن لوثر ظاهرة صكوك الغفران وحاربها بكل ما أوتي من قوة؛ حيث اعتبرها مفسدة وتساهم في تنويم الضمائر، فكتب قضايا هي عبارة عن بعض الجمل القصيرة يناقش فيها ويشكل من خلالها على اللاهوتيين الآخرين، فبلغ مجموعها (٩٥) قضية كلها حول صكوك الغفران.

انتشار الكنائس البروتستانتية

بحلول القرن التاسع عشر ساهمت الحركات التنصيرية البروتستانتية في انتشار البروتستانتية على نطاق واسع، وأصبح لها جذور في التاريخ بحيث أصبحت في النهاية دين الأغلبية في شتى أنحاء شمال غرب أوروبا وفي بريطانيا وأمريكا والدنمارك والنرويج والسويد و...[١].

١. للاطلاع أكثر راجع:

انتقال الفكر البروتستانتي إلى العالم العربي والإسلامي

طبعًا؛ كما هو معتاد، ونتيجةً لانجذاب بعض المفكرين والمثقفين العرب والمسلمين إلى الفكر الغربي وتأثّرهم به، قاموا بجرّ الفكر البروتستانتي إلى بلادنا، وروّجوا له على نطاق واسع، وقد تفاعل معه المجتمع كما يتفاعل مع أي فكر لقيط يتوافق مع رغباته وأهوائه، مما أدى إلى الإساءة إلى العلماء والفقهاء والمتديّنين من جهة؛ حيث لم تعد للعالِم تلك القداسة والمرجعية في الأمور الدينية. وأخذوا يفسرون الدين والتراث الديني كما تهوى أنفسهم من جهة أخرى. لذلك؛ نجد اليوم أنّ كثيرًا من العوام لا يحترم فتوى الفقيه بل يناقش فيها ويشكل عليها وكأنه أعلم من الفقيه في استنباط الحكم الشرعي وتفسير التراث الديني.

- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص٦ - ٧.
- جون لوريمر، تاريخ الكنيسة، ج٤، ص٣٨ فما بعد.
- إنعام محمد عقيل، طوائف الكنيسة البروتستانتية وعقائدها، ص٥٦ فما بعد.
- حسين اليوسف، الهرمنوطيقا وتغيّر الحكم الشرعي بتغيّر الزمان والمكان، ص٩٢ - ٩٣.

الملحق (٤): السوفسطائيون والسفسطة

السوفسطائيون هم مجموعة من العلماء ظهروا في اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد، كان يُطلق عليهم باللغة اليونانية اسم (سوفيست)؛ أي الحكيم أو العالم، ولكنّ هؤلاء على الرغم من اطّلاعهم الواسع على معلومات زمانهم، لم يكونوا معتقدين بالحقائق الثابتة، وإنما كانوا يعدون الأشياء جميعًا غير قابلة للمعرفة اليقينية.

وينقل مؤرخو الفلسفة أنهم كانوا يحترفون التعليم، فيعلّمون فنّ الخطابة والمناظرة، ويُربّون المحامين للمحاكم؛ حيث كانت سوق هذه الأمور رائجة في تلك العصور. وهذه الحرفة تقتضي أن يتمكّن المحامي من إثبات أي دعوى وردّ جميع ما يخالفها.

إنّ انتشار مثل هذه الألوان من التعليم المعجون بالمغالطة أوجد فيهم تدريجيًا فكرة مؤداها أنه لا حقيقة على الإطلاق وراء فكر الإنسان.

وهكذا بدأوا بتعليم الناس الأساليب القائمة على أساس المغالطة لإثبات الدعاوى وردّها، ثم شيئًا فشيئًا ترسّخ في أنفسهم هذا الاتجاه، فأعلنوا أنّ الحق والباطل تابعان لتفكير الإنسان، وبالتالي فإنه لا وجود للحقائق وراء الفكر الإنساني! ولا وجود للطبيعة ولا حتى ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا).

أما كلمة (سوفيست) التي كانت بمعنى الحكيم والعالم في اليونانية، فقد أُفرغت من معناها الأصيل؛ لأنها أصبحت لقبًا لهؤلاء؛ حيث تحولت إلى رمز لأسلوب التفكير والاستدلال القائم على أساس المغالطة.

وهذه الكلمة هي الأصل الذي أُخذت منه (السوفسطي) في اللغة العربية، ومنها أُخذت (السفسطة).

ومن أبرز أعلامهم: بروتاغوراس، وغورغياس، وبروديقوس، وهيبياس، وانتيغون.

وقد امتدحت بعض المدارس الماركسية السوفسطائيين على أساس أنهم فهموا الطبيعة فهمًا ماديًا، وبأنهم جسّدوا الفكر المستنير في عصرهم وهو (رفض الميتافيزيقا).

ونظرًا إلى خطورة هذا المذهب لما ينتج عنه من القضاء على أساس العلم والتشكيك في كل حقيقة في الكون ليصل في نهاية المطاف إلى التشكيك في الحقيقة المطلقة ووجود الواجب تعالى، انبرى له بعض الفلاسفة اليونانيين في ذاك الزمان لتفنيده وإبطاله، ومن أشهرهم سقراط الذي سمّى نفسه (فيلا سوفوس)؛ أي محب الحكمة في قبال السوفسطائيين الذين كانوا يعتبرون أنفسهم حكماء. وهذه الكلمة نفسها تحولت في العربية إلى (فيلسوف)، وأُخذت منها كلمة (الفلسفة).

وبعد سقراط نهض تلميذه أفلاطون لتعميق أسس الفلسفة، والذي اتّهم السوفسطائيين بالمغالطة في استخدام المنطق والمخادعة والنفاق للرأي العام من خلال توخّي البراعة في الخطابة واستمالة الجمهور، وجاء بعد ذلك تلميذه أرسطو الذي أوصل الفلسفة إلى أوج ازدهارها، ودوّن قواعد التفكير والاستدلال، وأخرجها بصورة علم المنطق.

ومنذ ذلك الحين وفي قبال السفسطة، نشأ علمان جديدان (علم الفلسفة) و(علم المنطق)؛ فالفلسفة بالنتيجة ظهرت في قبال السفسطة لإثبات الحقائق الوجودية وأنه يمكن إدراك هذه الحقائق والوصول إليها وإثباتها. وعلم المنطق وهو علم آليّ يضع قواعد للتفكير السليم والاستدلال القويم ودحض ما هو باطل وغير صحيح[1].

---

١. للاطلاع أكثر راجع:
- محمد تقي مصباح اليزدي، المنهج الجديد في تعليم الفلسفة، ج١، ص٢٠ – ٢١.
- عبد الوهاب الكيالي، موسوعة السياسة، ج٣، ص٢٠٥.

فهرس المصادر

ألف. المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.

٢. نهج البلاغة، **جمع وشرح الشريف الرضي**، طهران- إيران: مؤسسة نهج البلاغة، ١٣٧٢ هـ ش.

٣. الحتة، أحمد، **تاريخ مصر الاقتصادي في القرن التاسع عشر**، الإسكندرية - مصر: مطبعة المصري.

٤. الحر العاملي، محمد بن حسن، **وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة**، قم - إيران: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ١٤١٦ هـ ق.

٥. خطاب، محمود شيت، **الرسول القائد**، بيروت - لبنان: دار الفكر، الطبعة السادسة، ١٤٢٢ هـ ق.

٦. الشلق، أحمد زكريا، **الحرب والدولة العثمانية من الخضوع إلى المواجهة**، القاهرة - مصر: مصر العربية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢ م.

٧. صبري، محمد، **تاريخ مصر من محمد علي إلى اليوم**، القاهرة - مصر: دار الكتب المصرية، الطبعة الأولى، ١٩٢٦ م.

٨. الصدر، محمد، **تاريخ الغيبة**، بيروت - لبنان: دار التعارف، ١٤١٢ هـ ق.

٩. طرابيشي، جورج، **معجم الفلاسفة**، بيروت - لبنان: دار الطليعة، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٦ م.

١٠. قانصو، وجيه، **التعددية الدينية في فلسفة جون هيك**، بيروت - لبنان: الدار العربية للعلوم ناشرون، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧ م.

١١. كرم، يوسف بطرس، **تاريخ الفلسفة الحديثة**، مكتبة الدراسات الفلسفية، الطبعة الخامسة.

١٢. الكيالي، عبد الوهاب، **موسوعة السياسة**، بيروت - لبنان: دار الهدى

للطباعة والنشر، [بد تا].

١٣. لوريمر، جون، **تاريخ الكنيسة**، القاهرة - مصر: دار الثقافة، الطبعة الأولى، ١٩٨٨ م.

١٤. المجلس الأعلى للثقافة، **المرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر**، تقديم ومراجعة: يونان لبيب رزق، [بد مكا]، الطبعة الأولى.

١٥. المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي، **بحار الأنوار**، بيروت - لبنان: دار إحياء التراث، ١٤٠٣ هـ ق.

١٦. محمد عقيل، إنعام، **طوائف الكنيسة البروتستانتية وعقائدها**، السعودية: مؤسسة عكاظ للصحافة والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠١٣ م.

١٧. مؤنس، حسين، **الشرق الإسلامي في العصر الحديث**، القاهرة - مصر: مطبعة حجازي، الطبعة الأولى، ١٩٣٥ م.

١٨. هريدي، صلاح، **دراسات في تاريخ مصر الحديث والمعاصر**، الهرم - مصر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠ م.

١٩. اليزدي، محمد تقي مصباح، **المنهج الجديد في تعليم الفلسفة**، ترجمة: محمد عبد المنعم الخاقاني، قم - إيران: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم، ١٤٠٧ هـ ق.

ب. المجلات والدوريات

٢٠. محمد، أنمار أحمد، الفيلسوف جون هيك: **حياته وأهم أفكاره اللاهوتية «عرض وتحليل»**، مجلة كلية العلوم الإسلامية، إسطنبول - تركيا: جامعة السلطان محمد الفاتح الوقفية، العدد: ١، ٢٠٢٠ م.

٢١. اليوسف، حسين، **الهرمنوطيقا وتغيّر الحكم الشرعي بتغيّر الزمان والمكان**، مجلة الاجتهاد والتجديد الفصلية، بيروت - لبنان: مؤسسة دلتا للطباعة والنشر، العددان: ٣٠ و٣١ ربيع وصيف ٢٠١٤ م.

إصدارات مؤسسة حفظ ونشر تراث الشيخ الآصفي

سلسلة المقاومة في فكر العلامة الآصفي:

١. فصول المقاومة
٢. الوعد الصادق، دلالات ودروس انتصار حزب الله على إسرائيل
٣. مقاومة الاحتلال الإسرائيلي
٤. النصر الإلهي ومنهج التعامل مع الأعداء
٥. التحديات المعاصرة ومشروع المواجهة الإسلامية
٦. الجهاد بين الرحمة والعنف

سلسلة الغزو الثقافي للعالم الإسلامي:

١. قصة الغارة الحضارية على العالم الإسلامي
٢. الأخطار التي تهدد ثقافتنا **(هذا الكتاب)**

كتب متنوعة:

١. شرح دعاء الأسحار
٢. الثقافة القيادية والإدارية في القرآن والسنة

إنّ سرّ كل الانتكاسات والهزائم التي لقيناها في تاريخنا الطويل هو في تخلينا وانحرافنا عن ثقافتنا التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وآله إلينا من عند الله عن طريق الوحي.
إنّ مصيبتنا في ابتعادنا عن ثقافتنا وتخلّينا وانحرافنا عنها، وهي أساس كل مصائبنا السياسية والاقتصادية والعسكرية والعلمية.

مؤسسة حفظ ونشر
تراث الشيخ الآصفي رحمه الله